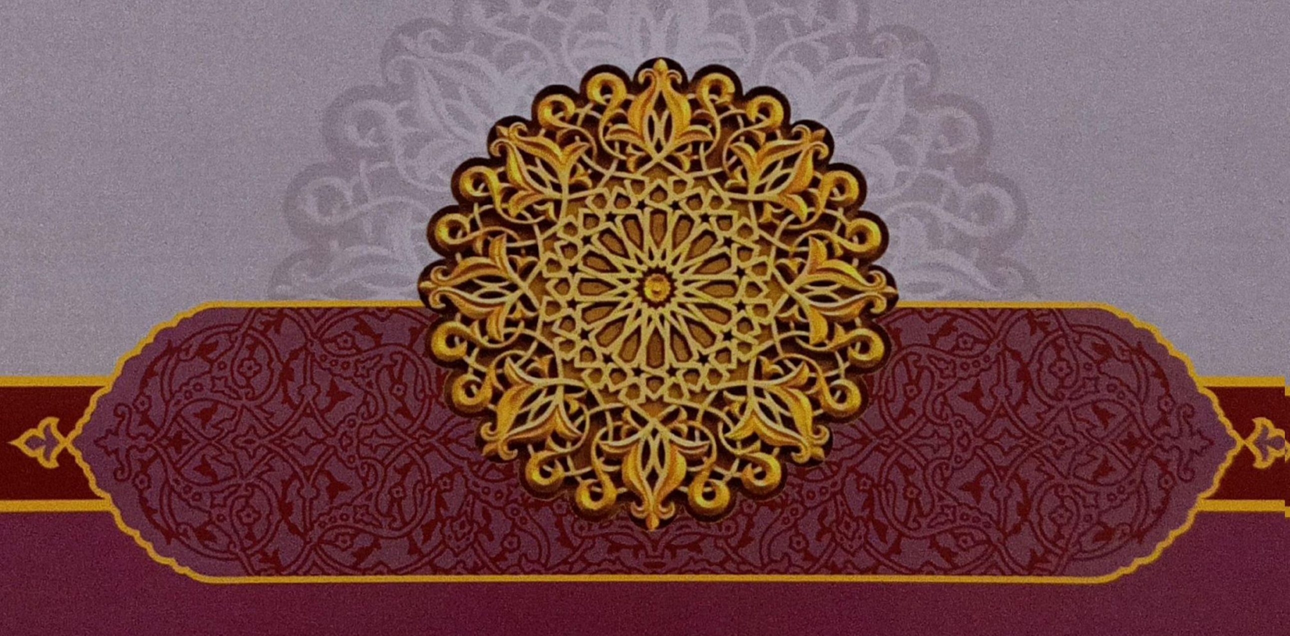
تقريب وتعليق على

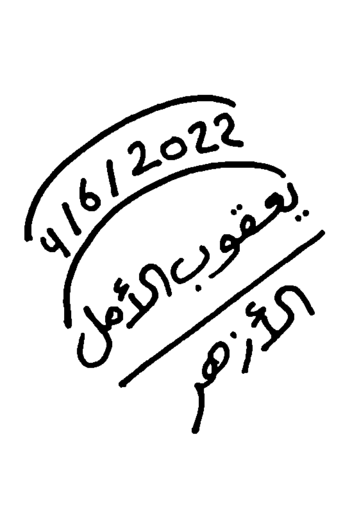
كتاب الفوائد

للإمام العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى

إعداد
يوسف محمد فارح يوسف



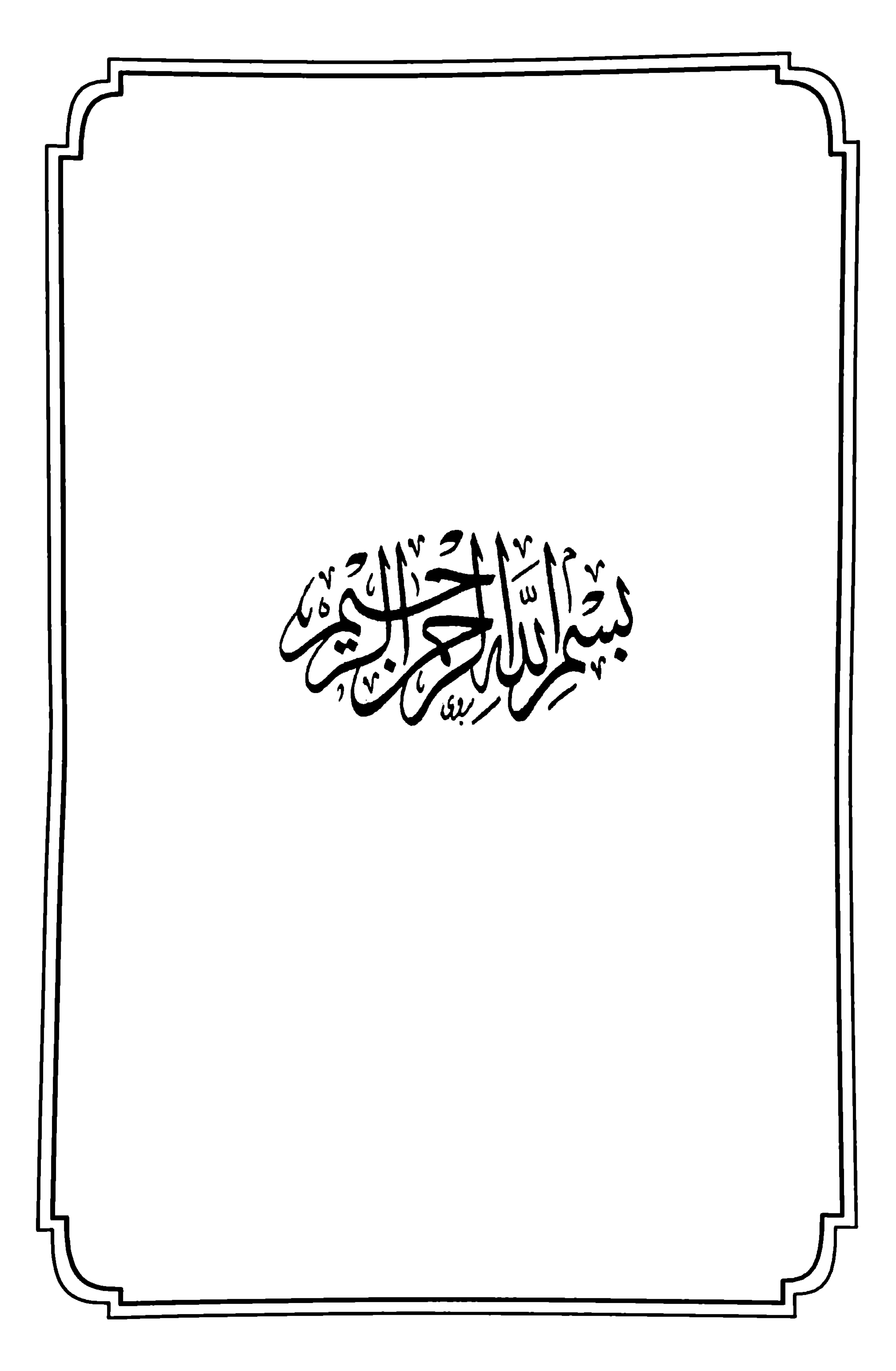
المكتب الإسلامي



تقريب وتعليق على

كتاب الفوائد

للإمام العلامة ابن القيم


بسم الله الرحمن الرحيم

تقريب وتعليق على

كتاب الفوائد

للإمام العلامة ابن القيم

رحمه الله تعالى

إعداد

يوسف محمد فارح يوسف

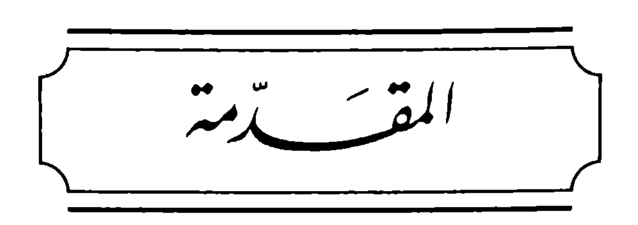
المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى

١٤٤١هـ ـ ٢٠١٩م

المكتب الإسلامي

بَيروت: ص.ب: ١١/٣٧٧١ ـ هاتف: ٤٥٦٢٨٠(٠٠٩٦١٥)
Web Site: www.almaktab-alislami.com
E-Mail: islamic_of@almaktab-alislami.com
عَمّان: ص.ب: ١٨٢٠٦٥ ـ هاتف: ٤٦٥٦٦٠٥



المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

أما بعد: «**فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار**».

فإن كتاب «الفوائد» من أحسن الكتب التي صنفت في الرقائق فهو نفيس، لا يمل جليسه، حوىٰ في جوفه الدُّرَّ والفرائد العظيمة، وله مكانة عند أهل العلم وسائر المسلمين، لأن مؤلفه الإمام الجليل العلامة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الشهير بابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، علم من أعلام العلماء، وممن أوتي فهمًا في الدين، عاش والقرآن والسنة بين عينيه، مشهور بطبيب القلوب وخبير بأمراضها، وطرق علاجها، وإخراجها من ظلمات المعاصي والآثام إلىٰ ما يصلحها في الدنيا والآخرة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أعمال القلوب: «هي الأصل المراد المقصود وأعمال الجوارح تبع ومكملة ومتممة، وإن النية بمنزلة الروح والعمل بمنزلة الجسد للأعضاء الذي إذا فارق الروح فموات، وكذلك العمل إذا لم تصحبه

النية فحركة عابث، فمعرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح إذ هي أصلها، وأحكام الجوارح متفرعة عليها» [«بدائع الفوائد» ٣/ ٢٢٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أعمال القلوب لا تكون صالحة مقبولة إلا بتوسط عمل القلب» [«مجموع الفتاوى» ١١/ ٣٨١].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح وأكثر وأدوم فهي واجبة في كل وقت» [«بدائع الفوائد» ٣/ ١٦٢].

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح].

إن الله سبحانه وتعالىٰ رضي عن المؤمنين، وهم يبايعون الرسول ﷺ في الحديبية علىٰ الجهاد والموت في سبيل الله، فعلم ما في قلوبهم من الإيمان والصدق والإخلاص والوفاء لرسالته ﷺ.

وقال الله تعالىٰ عن المنافقين واليهود: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [المائدة].

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قيل: يا رسول الله! من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «**لقد ظننت يا أبا هريرة ألا يسألني عن هٰذا الحديث أحدٌ أَوَّلُ منك لما رأيت من حرصك علىٰ الحديث: أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إلٰه إلَّا الله خالصًا من قلبه** ـ أو قال ـ **من نفسه**» [رواه البخاري/٩٩].

إن أعمال القلوب لها مكانة عظيمة، ومنزلة عالية في الإسلام من إخلاص للعبادة، وذكر الله تعالىٰ، وشكر علىٰ نعمه، فمثلًا الصلاة لها ظاهر وهي الأركان والواجبات والسنن، ولها باطن وهو الخشوع والإخبات والإخلاص، وإن استحقاق الجزاء علىٰ كسب أعمال القلوب ومقاصدها.

قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيحه»: «باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر، قال إبراهيم التيمي: ما عرضت قولي علىٰ عملي إلا خشيت أن

أكون مكذبًا. وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق علىٰ نفسه ما منهم من أحد إنه يقول علىٰ إيمان جبريل وميكائيل» [انظر: «فتح الباري» ١/١٠٩].

ولهٰذا من قرأ كتاب «**الفوائد**» بتدبر وبفهم يقوي إيمانه وفكره، وينشط للطاعة، ويزيل عنه غشاوة في بصره وبصيرته.

من أجل هٰذا استعنت بالله تعالىٰ **بتقريب وترتيب والتعليق علىٰ** هٰذا الكتاب العظيم النفع.

وأسأل الله جلت عظمته أن ينفع به عموم المسلمين،
وأن يجعله متقبلًا خالصًا لوجه الكريم.
والحمد لله رب العالمين،
والصلاة والسلام علىٰ نبينا،
محمد وعلى آله وصحبه أجمعين...

١ محرم ١٤٤١هـ
٣١ آب ٢٠١٩م

يوسف محمد فارح يوسف

❀ ❀ ❀ ❀

الإخلاص وذم الرياء

● لو نفع العلم بلا عمل لما ذم الله سبحانه أحبار أهل الكتاب، ولو نفع العمل بلا إخلاص لما ذم المنافقين.

● العمل بغير إخلاص ولا اقتداء، كالمسافر يملأ جرابه رملًا، يثقله ولا ينفعه.

● من عرف نفسه اشتغل بإصلاحها عن عيوب الناس.

● من عرف ربه اشتغل به عن هوىٰ نفسه.

● أخسر الناس صفقة من اشتغل عن الله بنفسه، بل أخسر منه من اشتغل عن نفسه بالناس.

● قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]. علق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهادًا، وأفرض الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوىٰ، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا، فمن جاهد هٰذه الأربعة في الله هداه الله سبيل رضاه الموصلة إلىٰ جنته، ومن ترك الجهاد فاته من الهدىٰ بحسب ما عطل من الجهاد.

● قال الجنيد: والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سبل الإخلاص، ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هٰذه الأعداء باطنًا، فمن نُصر عليها نُصر علىٰ عدوه، ومن نُصرت عليه نصر عليه عدوه.

● إطلاق البصر ينقش في القلب صورة المنظور، والقلب كعبة، والمعبود (سبحانه) لا يرضىٰ بمزاحمة الأصنام.

● أقرب الوسائل إلىٰ الله: ملازمة السنة والوقوف معها في الظاهر والباطن، ودوام الافتقار إلىٰ الله، وإرادة وجهه وحده بالأقوال والأفعال، وما وصل أحد إلىٰ الله إلا من هٰذه الثلاثة، وما انقطع عنه أحد إلا بانقطاعه عنها أو عن أحدها.

قال يحيى بن معاذ: عجبت من ثلاث: رجل يرائي بعمله مخلوقًا مثله ويترك أن يعمله لله، ورجل يبخل بماله وربه يستقرضه منه فلا يقرضه منه شيئًا، ورجل يرغب في صحبة المخلوقين ومودتهم والله يدعوه إلىٰ صحبته ومودته.

● المطلب الأعلى موقوف حصوله علىٰ همة عالية، ونية صحيحة فمن فقدهما تعذر عليه الوصول إليه، فإن الهمة إذا كانت عالية تعلقت به وحده دون غيره، وإذا كانت النية صحيحة سلك العبد الطرق الموصلة إليه، فالنية تفرد له الطريق، والهمة تفرد له المطلوب، فإذا توحد مطلوبه والطريق الموصلة إليه كان الوصول غايته، وإذا كانت همته سافلة تعلقت بالسفليات ولم تتعلق بالمطلب الأعلىٰ، وإذا كانت النية غير صحيحة كانت طريقه غير موصلة إليه.

فمدار الشأن علىٰ همة العبد ونيته وهما مطلوبه وطريقه، ولا يتم إلا بترك ثلاثة أشياء:

الأول: العوائق والرسوم والأوضاع التي أحدثها الناس.

الثاني: هجر العوائق التي تعوقه عن إفراد مطلوبه وطريقه وقطعها.

الثالث: قطع علائق القلب التي تحول بينه وبين تجريد التعليق بالمطلوب والفرق بينهما أن العوائق هي الحوادث الخارجية، والعلائق هي التعلقات القلبية بالمباحات ونحوها، وأصل ذلك: ترك الفضول التي تشغل عن المقصود من الطعام والشراب والمنام والخلطة، فيأخذ من ذلك ما يعينه علىٰ طلبه، ويرفض منه ما يقطعه عنه، أو يضعف طلبه، والله المستعان.



«التعليق»

لا قبول للعمل إلا بالإخلاص، وعلامة الإخلاص أن يستوي عندك المدح والذم، وإذا انتفىٰ الإخلاص حبط الأجر، وجاء الشرك الذي يبني علىٰ أربعة أركان وهي: الكبر والحسد والشهوة والغضب، والتي منشؤها من الجهل بالله وبحقيقة النفس.

قال الجرجاني: الإخلاص: «ألا تطلب لعملك شاهد غير الله تعالىٰ» [«التعريفات» ١٣].

وقال الفضيل بن عياض: «ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجلهم شرك، والإخلاص: الخلاص من هٰذين». وفي رواية: «والإخلاص: أن يعافيك الله منهما» [«مدارج السالكين» ٣/٩٥، و«التعريفات» ١٣].

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأعراف].

وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾﴾ [الزمر]. وقال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر]. وقال الله تعالىٰ: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ ۗ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر]. وقال الله تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [غافر]. وقال الله تعالىٰ: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۗ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة]. وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء].

عن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**ثلاثةٌ أُقسم عليهنَّ وأحدثكم حديثًا فاحفظوه**» قال: «**ما نقص مال عبدٍ من صدقة، ولا ظلم عبدٌ مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزًّا، ولا فتح عبدٌ باب مسألةٍ إلا فتح الله عليه باب فقرٍ** ـ أو كلمة نحوها ـ **وأحدثكم حديثًا فاحفظوه**» قال: «**إنما الدنيا لأربعة نفرٍ، عبدٍ رزقه الله مالًا وعلمًا فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقًّا، فهٰذا بأفضل المنازل، وعبدٍ رزقه الله علمًا ولم**

يرزقه مالًا، فهو صادق النية يقول: **لو أن لي مالًا لعملت بعمل فلان فهو نيته فأجرهما سواء، وعبدٍ رزقه الله مالًا ولم يرزقه علمًا فهو يتخبطُ في ماله بغير علم لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يَعلمُ لله فيه حقًّا، فهٰذا بأخبث المنازل، وعبدٍ لم يرزقه الله مالًا ولا علمًا فهو يقول: لو أن لي مالًا لعملتُ فيه بعمل فلان فهو نيته فوزرهما سواءٌ»** [رواه الترمذي ٢٣٢٥، وهو في «صحيح الجامع الصغير» ٣٠٢٤].

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تبارك وتعالىٰ: أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**» [رواه مسلم ٢٩٨٥].

(تركته وشركه): معناه أنه غني عن المشاركة وغيرها، والمراد أن عمل المرائي باطل لا ثواب له.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلىٰ صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم**» [رواه مسلم ٤/٢٥٦٤].

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله تعالىٰ: ما لعبدي المؤمن عندي جزاءٌ إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه؛ إلا الجنة**» [رواه البخاري ـ «الفتح» ١١/٦٤٢٤].

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالىٰ: «﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ وهٰذان ركنا العمل المتقبل لا بد أن يكون خالصًا لله، صوابًا علىٰ شريعة رسول الله ﷺ» [«تفسير القرآن العظيم» ١٦/١١٤].

وقال الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإخلاص سر بين الله وبين العبد، لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوىً فيميله» [«مدارج السالكين» ٢/٩٥].

وقال مكحول: «ما أخلص عبدٌ قطُّ أربعين يومًا إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه ولسانه» [«مدارج السالكين» ٢/٩٦].

❀ ❀ ❀ ❀

آثار المعاصي

● دافع الخطرة، فإن لم تفعل صارت فكرة، فدافع الفكرة فإن لم تفعل صارت شهوة، فحاربها، فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمة، فإن لم تدافعها صارت فعلًا، فإن لم تتداركه بضده صارت عادة فيصعب عليك الانتقال عنها.

● قلة التوفيق، وفساد الرأي، وخفاء الحق، وفساد القلب وخمول الذكر، وإضاعة الوقت، ونفرة الخلق، والوحشة بين العبد وبين ربه، ومنع إجابة الدعاء، وقسوة القلب، ومحق البركة في الرزق والعمر، وحرمان العلم، ولباس الذل، وإهانة العدو، وضيق الصدر، والابتلاء بقرناء السوء الذين يفسدون القلب ويضيعون الوقت، وطول الهم والغم، وضنك المعيشة وكسف البال: تتولد من المعصية والغفلة عن ذكر الله كما يتولد الزرع عن الماء، والإحراق عن النار، وأضداد هٰذه تتولد عن الطاعة.

● مثال تولد الطاعة ونموها وتزايدها، كمثل نواة غرستها فصارت شجرة، ثم أثمرت، فأكلت ثمرها وغرست نواها، فكلما أثمر منها شيء جنيت ثمره وغرست نواه، وكذلك تداعي المعاصي، فليتدبر اللبيب هٰذا المثال، فمن ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها.

● إياك المعاصي فإنها أذلت عز: ﴿ٱسْجُدُوا۟﴾ وأخرجت إقطاع ﴿ٱسْكُنْ﴾.

● تالله ما نفعه عند معصيته عز: ﴿ٱسْجُدُوا۟﴾ ولا شرف: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ﴾ ولا خصيصة: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾، ولا فخر: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ إنما انتفع بذل: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾، لما لبس درع التوحيد علىٰ بدن الشكر وقع سهم العدو منه في غير مقتل، فجرحه، فوضع عليه جبار الانكسار، فعاد كما كان، فقام الجريح كأن لم يكن به قلبة.

● الذنوب جراحات، ورب جرح وقع في مقتل.

● لو خرج عقلك من سلطان هواك عادت الدولة له.

● دخلت دار الهوىٰ فقامرت بعمرك.

● اقشعرت الأرض، وأظلمت السماء، وظهر الفساد في البر والبحر من ظلم الفجرة، وذهبت البركات، وقلّت الخيرات، وهزلت الوحوش، وتكدرت الحياة من فسق الظلمة، وبكىٰ ضوء النهار وظلمة الليل من الأعمال الخبيثة والأفعال الفظيعة، وشكا الكرام الكاتبون والمعقبات إلىٰ ربهم من كثرة الفواحش وغلبة المنكرات والقبائح. وهٰذا والله منذر بسيل عذاب قد انعقد غمامه، ومؤذن بليل بلاء قد ادلهم ظلامه، فاعزلوا عن طريق هٰذا السبيل بتوبة نصوح ما دامت التوبة ممكنة، وبابها مفتوح، وكأنكم بالباب وقد أغلق، وبالرهن وقد غلق وبالجناح وقد علق: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ٢٢٧﴾ [الشعراء].

● المعاصي سد في باب الكسب، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه.

● لما صاد الكلب لربه أُبيح صيده، ولما أمسك علىٰ نفسه حرم ما صاده. (لربه مالكه وسيده).

● علمت كلبك فهو يترك شهوته في تناول ما صاده احترامًا لنعمتك وخوفًا من سطوتك، وكم علّمك معلم الشرع وأنت لا تقبل.

● حرم صيد الجاهل والممسك لنفسه، فما ظن الجاهل الذي أعماله لهوىٰ نفسه؟!

● جمع فيك عقل الملك، وشهوة البهيمة، وهوىٰ الشيطان، وأنت للغالب عليك من الثلاثة، إن غلبت شهوتك وهواك زدت علىٰ مرتبة ملك، وإن غلبك هواك وشهوتك نقصت عن مرتبة كلب.

● اتباع الهوىٰ وطول الأمل، مادة كل فساد، فإن اتباع الهوىٰ يعمي عن الحق ـ معرفةً وقصدًا ـ وطول الأمل ينسي الآخرة، ويصد عن الاستعداد لها.

● قال سهل بن عبد الله: ترك الأمر عند الله أعظم من ارتكاب النهي، لأن

آدم نُهي عن أكل الشجرة فأكل منها فتِيبَ عليه، وإبليس أمر أن يسجد لآدم فلم يسجد فلم يُتب عليه.

قلت هٰذه مسألة عظيمة لها شأن، وهي أن ترك الأوامر أعظم عند الله من ارتكاب المناهي، (وذكر وجوه عديدة فليراجع).

- من تذكر خنق الفخ هان عليه هجران الحبة.

❊ ❊ ❊

«التعليق»

إن الذي يريد أن يفوز بنعيم الأبد، وسعادة الآخرة لا بد أن يطهر نفسه ظاهرًا وباطنًا، ويتخلص من الأدواء والأخلاط والمعاصي وذل الشهوات، وذلك بأن يستعمل دواء الصبر علىٰ الاستقامة والمحافظة علىٰ الطاعة، ومعاودة التوبة كلما أذنب أو وقع في هفوة.

ولقد أمر الله بأوامر يجب الإتيان بها، ونهىٰ عن مناه يجب الانكفاف عنها والناس بالنسبة للقيام بالأوامر وترك النهي أقسام وأنواع، لكن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرىٰ أن القيام بالأمر أعظم أهمية في الشرع، وأدل علىٰ الإيمان من ترك النهي.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٩]، أي: لا يخالفونه في أمرٍ من زيادة أو نقصان» [«الجامع لأحكام القرآن» ١٩٦/١٨].

قال الجرجاني: «العصيان هو ترك الانقياد» [«التعريفات» ١٥٦].

وقال المناوي: «هو الامتناع عن الانقياد لما أمر الله به أو نهىٰ عنه» [انظر: «التوقيف»/٢٤٢، و«الكليات» للكفوي/٦٥٦].

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ۝٧٨﴾ [المائدة]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ۝٣٦﴾ [الأحزاب].

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء]. وقال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ [الجن]. وقال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾﴾ [الحجرات].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**احتج آدم وموسىٰ عليهما السلام، عند ربهما فحجَّ آدم موسىٰ، قال موسىٰ: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك في جنته ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلىٰ الأرض؟ فقال آدم: أنت موسىٰ الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقربك نجيًّا، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أُخلق؟ قال موسىٰ: بأربعين عامًا، قال آدم: فهل وجدت فيها:** ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ [طه]، **قال: نعم، قال: أفتلومني علىٰ أن عملتُ عملًا كتبه الله عليَّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ قال رسول الله ﷺ: فحجَّ آدم موسى**» [رواه البخاري ـ «الفتح» ١١/٦٦١٤، ومسلم ٢٦٥٢ واللفظ له].

(فحج آدم موسى): أي: غلبه بالحجة وظهر عليه بها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبىٰ**» قالوا: يا رسول الله! ومن يأبىٰ؟ قال: «**من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبىٰ**» [البخاري ـ «الفتح» ١٣/٧٢٨٠].

عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه**» [البخاري ـ «الفتح» ١١/٦٦٩٦].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**يَلْقَى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترةٌ وغبرةٌ ـ فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب! إنك وعدتني أن لا**

تخزيني يوم يبعثون فأيُّ خزي أخزىٰ من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالىٰ: إني حرمتُ الجنة علىٰ الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم! ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقىٰ في النار» [البخاري ـ «الفتح» ٦/ ٢٣٥٠].

(ذيخٌ متلطخ): جاء في «لسان العرب»: الذيخ ذكر الضباع الكثير الشعر، و(التلطخ): الطلاء بالطين ونحوه والمراد: أن آزر يمسخ ضبعًا ويلطخ بالطين أو بما يرجع من جوفه ثم يلقىٰ في النار.

عن أبي الدرداء ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل ذنب عسىٰ الله أن يغفره إلا من مات مشركًا، أو مؤمن قتل مؤمنًا متعمدًا**» [رواه أبو داود ٤/ ٤٢٧٠]. [وقال محقق «جامع الأصول» إسناده صحيح ٢٠٦/١٠، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» ٣٥٨٩].

وعن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضًا من اللَّبن فسوَّدته خطايا بني آدم**» [رواه الترمذي ٨٧٨، وقال: حديث حسن صحيح، وقال الألباني في تعليقه علىٰ «مشكاة المصابيح» ٢٥٧٧ وهو كما قال].

قال عمر بن الخطاب ﷺ: «لا تصحب الفُجَّار لتعلم من فجورهم واعتزل عَدُوَّكَ، واحذر صديقك إلا الأمين ـ ولا أمين إلا من خشي الله ـ وتخشَّع عند القبور، وَذَلَّ عند الطاعة، واستعصم عند المصيبة، واستشر الذين يخشون الله» [«الدر المنثور» للسيوطي ٢٢/٧].

قال عمر ﷺ يومًا لأصحاب النبي ﷺ: «فيمَ ترون هٰذه الآية نزلت: ﴿**أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾**﴾ [البقرة] قالوا: الله أعلم، فغضب عمر، فقال: قولوا نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس في نفسي منها شيءٌ يا أمير المؤمنين! قال عمر: يا ابْنَ أخي! قل ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس: ضُربت مثلًا لعملٍ، قال عمر: أيُّ عمل؟ قال ابن عباس: لعملٍ، قال عمر: لرجلٍ غنِيٍّ يعملُ بطاعة الله ﷻ ثم بعث الله له الشياطين فعمل بالمعاصي حتىٰ أغْرَقَ أعماله» [البخاري ـ «الفتح» ٤٥٣٨/٨].

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «يوشك القرىٰ أن تَخْرَبَ وهي عامرة،

قيل: وكيف تخرب وهي عامرة؟ قال: إذا علا فجارها أبرارها، وساد القبيلة منافقوها» [«الجواب الكافي»/ ٦٩].

عن عائشة ﵂ قالت: «أقِلُّوا الذنوب فإنكم لن تلقوا الله بشيء أفضل من قلة الذنوب» [«الزهد» لوكيع بن الجراح ٥٣٥/٢].

وقال رجل لابن عباس ﵄: أرأيت رجلًا كثير الذنوب كثير العمل، أو رجلًا قليل الذنوب قليل العمل؟ قال: ما أعدل بالسلامة شيئًا» [«الزهد» لوكيع بن الجراح ٥٣٤/٢].

قال عبد الله بن مسعود ﵁ في قوله تعالىٰ: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. قال: «أن يطاع فلا يعصىٰ، ويذكر فلا ينسىٰ، وأن يشكر فلا يكفر» [أخرجه الحاكم ٢٩٤/٢، وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين].

قال طلق بن حبيب: «التقوىٰ: العمل بطاعة الله رجاء رحمة الله، علىٰ نور من الله والتقوىٰ: ترك معاصي الله، مخافة عقاب الله، علىٰ نور من الله» [«الدر المنثور» للسيوطي ٦١/١].

قال الشاعر:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... ويورثها الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب ... وخيرٌ لنفسك عصيانها

[«الجواب الكافي» لابن القيم/ ٣٠].

وقال آخر:

خل الذنوب صغيرها ... وكبيرها فهو التقىٰ

واصنع كماشٍ فوق ... أرض الشوك يحذر ما يرىٰ

لا تحقرن صغيرة ... إن الجبال من الحصىٰ

[«آثار المعاصي» ١٠].

❀ ❀ ❀ ❀

الغفلة

● لا بد من سِنة الغفلة ورقاد النوم، ولكن كن خفيف النوم فحراس البلد يصيحون: دنا الصباح.

● الحرب قائمة وأنت أعزل في النظارة، فإن حركت ركابك فللهزيمة.

● يا مغرورًا بالأماني:

ـ لعن إبليس وأُهبط من منزل العِزّ بترك سجدة واحدة أمر بها.

ـ وأخرج آدم من الجنة بلقمة تناولها.

ـ وحجب القاتل عنها بعد أن رآها عيانًا بملء كف من دم.

ـ وأمر بقتل الزاني أشنع القتلات بإيلاج قدر الأنملة فيما لا يحل.

ـ وأمر بإيساع الظهر سياطًا بكلمة قذف أو بقطرة من سُكْر.

ـ وأبان عضوًا من أعضائك بثلاثة دراهم.

ـ فلا تأمنه أن يحبسك في النار بمعصية واحدة من معاصيه ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس].

ـ دخلت امرأة النار في هرة.

ـ وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالًا يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب.

ـ وإن الرجل ليعمل بطاعة الله ستين سنة فإذا كان عند الموت جار في الوصية، فيختم له بسوء عمله فيدخل النار.

ـ العمر بآخره والعمل بخاتمته.

ـ من أحدث قبل السلام بطل ما مضىٰ من صلاته.

ـ ومن أفطر قبل غروب الشمس ذهب صيامه ضائعًا.

ـ ومن أساء في آخر عمره لقي ربه بذلك الوجه.

● كم جاء الثواب يسعىٰ إليك فوقف بالباب، فرده بواب «سوف، ولعل، وعسىٰ».

● كيف الفلاح بين إيمان ناقص، وأمل زائد، ومرض لا طبيب له ولا عائد، وهوىً مستيقظ، وعقل راقد، ساهيًا في غمرته عمّها في سكرته، سابحًا في لجة جهله، مستوحشًا من ربه مستأنسًا بخلقه، ذكر الناس فاكهته وقوته، وذكر الله حبسه وموته، لله منه جزء يسير من ظاهره، وقلبه ويقينه لغيره.

لا كان من لسواك فيه بقيّة ... يجد السبيل بها إليه العذل

● خراب القلب من الأمن والغفلة، وعمارته من الخشية والذكر.

● إياك والغفلة عمن جعل لحياتك أجلًا، ولأيامك وأنفاسك أمدًا، ومن كل ما سواه بد ولا بد لك منه.

● عشرة أشياء ضائعة لا ينتفع بها:

١ ـ علمٌ لا يعمل به.

٢ ـ وعمل لا إخلاص فيه ولا اقتداء.

٣ ـ ومال لا ينفق منه، فلا يستمتع به جامعه في الدنيا، ولا يقدمه أمامه إلىٰ الآخرة.

٤ ـ وقلب فارغ من محبة الله، والشوق إليه، والأنس به.

٥ ـ وبدن معطل من طاعته وخدمته سبحانه.

٦ ـ ومحبة لا تتقيد برضاء المحبوب وامتثال أوامره.

٧ ـ ووقت معطل عن استدراك فارط، أو اغتنام بر وقربة.

٨ ـ وفكر يجول فيما لا ينفع.

٩ ـ وخدمة من لا تقربك خدمته إلىٰ الله، ولا تعود عليك بصلاح دنياك.

١٠ ـ خوفك ورجاؤك لمن ناصيته بيد الله، وهو أسير في قبضته سبحانه ولا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

وأعظم هٰذه الإضاعات: إضاعتان هما أصل كل إضاعة:

- إضاعة القلب، وإضاعة الوقت.

فإضاعة القلب من إيثار الدنيا على الآخرة، وإضاعة الوقت من طول الأمل.

فاجتمع الفساد كله في: اتباع الهوىٰ وطول الأمل.

- والصلاح كله في اتباع الهدىٰ والاستعداد للقاء. والله المستعان.

● كيف يكون عاقلًا من باع الجنة بما فيها بشهوة ساعة.

❊ ❊ ❊

«التعليق»

هناك أمور يقضي فيها الإنسان حياته، ويضيع فيها عمره وهي ضائعة عليه لا تحسب له في رصيد الآخرة، فليحذر منها الإنسان وينتبه لها.

قال المناوي: «الغفلة فقد الشعور بما حقه أن يُشعر به» [«التوقيف علىٰ مهمات التعاريف»/ ٥٤٠].

وقال الراغب: «سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ» [«المفردات»/ ٣٧٥].

وقيل: متابعة النفس علىٰ ما تشتهيه.

وقال الجرجاني: «الغفلة عن الشيء هي أن لا يخطر ذلك بباله، وقيل: إبطال الوقت بالبطالة» [«التعريفات»/ ١٦٢].

وقال الكفوي: «الغفلة عدم إدراك الشيء مع وجود ما يقتضيه» [«الكليات»/ ٥٠٦].

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف]. وقال الله تعالىٰ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف]. وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا

يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف]. وقال الله تعالىٰ: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنبياء]. وقال الله تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم].

عن عبد الله بن عمر وأبي هريرة ﷺ، أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول علىٰ أعواد منبره: «**لينتهينَّ أقوامٌ عن ودعهم الجُمُعات، أو ليختمنَّ الله علىٰ قلوبهم، ثم ليكوننَّ من الغافلين**» [رواه مسلم ٨٦٥].

وعن ابن عباس ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتىٰ السلطان افتتن**» [رواه الترمذي ٢٢٥٦، وأبو داود ٢٨٥٩، وصححه الألباني ٢/٥٥٢].

وعن أبي سعيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُجاءُ بالموت يوم القيامة كأنه كبشٌ أملح** ـ زاد أبو كريب ـ فيوقف بين الجنة والنار (واتَّفقا في باقي الحديث) **فيقال: يا أهل الجنة! هل تعرفون هٰذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هٰذا الموت، قال: ويقال: يا أهل النار! هل تعرفون هٰذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هٰذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح، قال ثم يقال: يا أهل الجنة! خلود فلا موت، ويا أهل النار! خلود فلا موت**» ثم قرأ رسول الله ﷺ: «﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم] وأشار بيده إلىٰ الدنيا» [البخاري ـ «الفتح» ٨/٤٧٣٠، ومسلم ٢٨٤٩ واللفظ له].

(كبش أملح): هو الذي فيه: بياض وسواد وبياضه أكثر. (فيشرئبون): أي يرفعون رؤوسهم إلىٰ المنادي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: **«ما اجتمع قوم فتفرقوا عن غير ذكر الله إلا كأنما تفرَّقوا عن جيفة حمار، وكان ذلك المجلس عليهم حسرة»** [رواه أحمد ٣٨٩/٢، وأبو داود ٢٨٥٥، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» ٩٢٠/٣، وهو في «الصحيحة» ٧٧].

وعن أبي موسىٰ رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: **«مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت»** [رواه البخاري - «الفتح» ٦٤٠٧/١١ واللفظ له، ومسلم ٧٧٩].

وقال الشاعر:

الناس في غفلة والموت يوقظهم ... وما يفيقون حتىٰ ينفد العمر
يُشيَّعون أهاليهم بجمعهم ... وينظرون إلىٰ ما فيه قد قُبِرُوا
ويرجعون إلىٰ أحلام غفلتهم ... كأنهم ما رأوا شيئًا ولا نظروا

[«صيد الخاطر»/١١٦].

❁ ❁ ❁ ❁

اليقظة وترك الذنوب

● لما عرف الموفقون قدر الحياة الدنيا، وقلة المقام فيها، أماتوا الهوىٰ طلبًا لحياة الأبد، ولما استيقظوا من نوم الغفلة استرجعوا بالجد ما انتهبه العدو منهم في زمن البطالة، فلما طالت عليهم الطريق تلمحوا المقصد فقرب عليهم البعيد، وكلما أمّرت لهم الحياة، حلىٰ لهم تذكر: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

● لما رأىٰ المتيقظون سطوة الدنيا بأهلها، وخداع الأمل لأربابه، وتملك الشيطان، وقيادة النفوس، ورأوا الدولة للنفس الأمارة، لجَؤوا إلىٰ حصن التضرع والالتجاء كما يأوي العبد المذعور إلىٰ حرم سيده.

● تالله ما كانت الأيام إلا منامًا، فاستيقظوا وقد حصلوا علىٰ الظفر.

● ما مضى من الدنيا أحلام، وما بقي منها أماني، والوقت ضائع بينهما.

● إذا جن الليل، تغالب النوم والسهر، فالخوف والشوق في مقدم عسكر اليقظة، والكسل والتواني في كتيبة الغفلة، فإذا حمل العزم حمل علىٰ الميمنة، وانهزمت جنود التفريط، فما يطلع الفجر إلا وقد قُسمت السهمان، وبردت الغنيمة لأهلها.

● يا من هو من أرباب الخبرة، هل عرفت قيمة نفسك؟! إنما خلقت الأكوان كلها لك.

● يا من غُذي بلبان البر، وقلب بأيدي الألطاف، كل الأشياء شجرة وأنت الثمرة، وصورة وأنت المعنىٰ، وصدف وأنت الدر، ومخيض وأنت الزبد.

● من لاح له حال الآخرة، هان عليه فراق الدنيا.

● سبحان الله رب العالمين، لو لم يكن في ترك الذنوب والمعاصي إلا إقامة المروءة، وصون العرض، وحفظ الجاه، وصيانة المال الذي جعله الله

قوامًا لمصالح الدنيا والآخرة، ومحبة الخلق، وجواز القول بينهم، وصلاح المعاش، وراحة البدن، وقوة القلب، وطيب النفس، ونعيم القلب، وانشراح الصدر، والأمن من مخاوف الفساق والفجار، وقلة الهم والغم والحزن، وعز النفس عن احتمال الذل، وصون نور القلب أن تطفئه ظلمة المعصية وحصول المخرج له مما ضاق علىٰ الفساق والفجار، وتيسير الرزق عليه من حيث لا يحتسب، وتيسير ما عسر علىٰ أرباب الفسوق والمعاصي وتسهيل الطاعات عليه، وتيسير العلم، والثناء الحسن من الناس وكثرة الدعاء له، والحلاوة التي يكتسبها وجهه، والمهابة التي تلقىٰ له في قلوب الناس، وانتصارهم وحميتهم له إذا أوذي وظلم، وذبهم عن عرضه إذا اغتابه مغتاب، وسُرعة إجابة دعائه، وزوال الوحشة التي بينه وبين الله، وقرب الملائكة منه، وبعد شياطين الإنس والجن منه، وتنافس الناس علىٰ خدمته وقضاء حوائجه، وخطبتهم لمودته وصحبته، وعدم خوفه من الموت، بل يفرح به لقدومه علىٰ ربه ولقائه له ومصيره إليه، وصغر الدنيا في قلبه، وكبر الآخرة عنده، وحرصه علىٰ الملك الكبير، والفوز العظيم فيها، وذوق حلاوة الطاعة، ووجد حلاوة الإيمان، ودعاء حملة العرش ومن حوله من الملائكة له، وفرح الكاتبين به ودعاؤهم له كل وقت والزيادة في عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته، وحصول محبة الله له وإقباله عليه، وفرحه سبحانه بتوبته، وهكذا يجازيه بفرح وسرور لا نسبة له إلىٰ فرحه وسروره بالمعصية بوجه من الوجوه.

فهٰذه بعض آثار ترك المعاصي في الدنيا، فإذا مات تلقته الملائكة بالبشرىٰ من ربه بالجنة، وبأنه لا خوف عليه ولا حزن وينتقل من سجن الدنيا وضيقها إلىٰ روضة من رياض الجنة ينعم فيها إلىٰ يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة كان الناس في الحر والعرق، وهو في ظل العرش، فإذا انصرفوا من بين يدي الله أخذ به ذات اليمين مع أوليائه المتقين وحزبه المفلحين. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الجمعة، والحديد: ٢١].

● إذا لاح للباشق الصيد، نسي مألوف الكف.

(الباشق): نوع من جنس البازي وهو من الجوارح يشبه الصقر.

❋ ❋ ❋

«التعليق»

على العاقل أن يستيقظ وينتبه ويشمّر إلىٰ التزام بالكتاب والسنة والإكثار من الأعمال الصالحة والعبادات وكسب الحلال، وترك جميع الفواحش والمحرمات.

قال الكفوي: «التيقظ: كمال التَّنبُّهِ والتحرز عما لا ينبغي» [«الكليات»/٣١٤].

وقيل: «تَحقُّقُ البصيرة: ما خلَّصكَ من الحيرة إما بإيمان وإمَّا بِعَيانٍ» [«بصائر ذوي التمييز» ٣٨٨/٥].

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾ [الكهف].

قال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ: «قلت: إذا كان بعض الكلاب قد نال هٰذه الدرجة العليا بصحبته ومخالطته الصلحاء والأولياء حتىٰ أخبر الله تعالىٰ بذلك في كتابه جلَّ وعلا فما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين المحبين للأولياء والصالحين، بل في هٰذا تسلية وأنس للمؤمنين المقصرين عن درجات الكمال المحبين للنبي ﷺ، وآله خير آلٍ» [«الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي ٢٣٢/١٣].

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: جاءت ملائكة إلىٰ النبي ﷺ وهو نائم، فقال بعضهم: إنه نائمٌ، وقال بعضهم: إن العين نائمةٌ والقلب يقظان، فقالوا: إن لصاحبكم هٰذا مثلًا، قال: فاضربوا له مثلًا، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمةٌ والقلب يقظان، فقالوا: مثله كمثل رجل بنىٰ دارًا وجعل فيها مأدبةً وبعث داعيًا، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة، فقالوا: أوِّلوها له يفقهها، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: فالدار: الجنة، والداعي محمد ﷺ، فمن أطاع محمد ﷺ فقد أطاع الله، ومن عصىٰ محمدًا ﷺ فقد عصى الله، ومحمد فرّق بين الناس» [رواه البخاري ـ «الفتح» ٧٢٨١/١٣].

قال العَزِّيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أن العبد قبل وصول الدَّاعي إليه في نوم الغفلة،

قلبه نائمٌ وطرفه يقظان، فصاح به الناصح وأسمعه داعي النجاح وأذن به مؤذن الرحمٰن: حيٍّ علىٰ الفلاح» [«تهذيب مدارج السالكين»/١٠١].

وقال الفيروزآبادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واليقظة عند القوم أول منازل العبودية وهي انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين، والله ما أنفع هٰذه الروعة، وما أعظم قدرها وخطرها، وما أقوىٰ إعانتها علىٰ السلوك، فمن أحس بها فقد أحسَّ والله بالفلاح، وإلا فهو في سكرات الغفلة فإذا انتبه وتيقظ شمَّر بهمته إلىٰ السفر إلىٰ منازله الأولىٰ، فأخذ في أُهبة السفر، وانتقل إلىٰ منزلة القوم، وهو العهد الجازم علىٰ الشيء ومفارقة كل قاطع ومعوقٍ، ومرافقة كل معين وموصلٍ، وبحسب كمال انتباهه ويقظته تكون عزيمته، وبحسب قُوَّة عزمه يكون استعداده، فإذا استيقظ أوجت اليقظةُ الفكرة، وهي تحديقُ القلب نحو المطلوب الذي قد سعد به مجملًا ولم يهتد إلىٰ تفصيله وطريق الوصول إليه، فإذا صحَّتْ فكرتُهُ أوجبت له البصيرة، وهي نور في القلب ترىٰ به حقيقة الوعد الوعيد والجنة والنار» [«بصائر ذوي التمييز» ٥/٣٨٨ ـ ٣٨٩].

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومن الناس من يعيش شقيًا ... جيفة الليل غافل اليقظهْ
فإذا كان ذا حياءٍ ودينٍ ... راقب الله واتَّقىٰ الحفظهْ
إنما الناس سائر ومقيم ... والذي سار للمقيم عِظهْ

[انظر: لسان العرب ٧/٤٦٦ ـ ٤٦٧].

❀ ❀ ❀ ❀

التوبة

● ارجع إلىٰ الله، واطلبه من عينك، وسمعك، وقلبك، ولسانك، ولا تشرد عنه من هٰذه الأربعة، فما رجع من رجع إليه بتوفيقه إلا منها، وما شرد من شرد عنه إلا بخذلانه إلا منها، فالموفق يسمع ويبصر ويتكلم ويبطش بمولاه، والمخذول يصدر ذلك عنه بنفسه وهواه.

● فرح إبليس بنزول آدم من الجنة، وما علم أن هبوط الغائص في اللجة خلف الدُّرِّ صعود.

● ما أخذ العبد ما حُرم عليه إلا من جهتين:

إحداهما: سوء ظنه بربه وأنه لو أطاعه وآثره لم يعطه خيرًا منه حلالًا.

والثانية: أن يكون عالمًا بذلك، وأن من ترك لله شيئًا أعاضه خيرًا منه، ولكن تغلب شهوته صبره، وهواه عقله.

فالأول: من ضعف علمه، والثاني: من ضعف عقله وبصيرته.

● قال يحيىٰ بن معاذ: من جمع الله عليه قلبه في الدعاء لم يرده.

قلت: إذا اجتمع عليه قلبه، وصدقت ضرورته وفاقته، وقوي رجاؤه فلا يكاد يُرد دعاؤه.

● من سبقت له سابقة السعادة دُل علىٰ الدليل قبل الطلب. أي: ألهمه الله التوبة ووفقه الله قبل الممات.

● لا تسأم من الوقوف علىٰ الباب ولو طردت، ولا تقطع الاعتذار ولو رددت، فإن فُتح الباب للمقبولين دونك فاهجم هجوم الكذّابين، وادخل دخول الطفيلية، وابسط كف: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ [يوسف: ٨٨].

● التوبة من الذنب كشرب الدواء للعليل، ورب علة كانت سبب الصحة.

موت النفوس حياتها من شاء أن يحيا يموت

● العبد لا يريد بمعصيته مخالفة سيده، ولا الجرأة علىٰ محارمه، ولكن غلبات الطبع وتزيين النفس والشيطان، وقهر القُوىٰ، والثقة بالعفو، ورجاء المغفرة، هٰذا من جانب العبد.

وأما من جانب الربوبية: فجريان الحكم، وإظهار عز الربوبية وذل العبودية، وكمال الاحتياج، وظهور آثار الأسماء الحسنىٰ كالعفو والغفور، والتواب والحليم: لمن جاء تائبًا نادمًا، والمنتقم والعدل وذي البطش الشديد: لمن أصرَّ ولزم المجرة، فهو سبحانه يريد أن يُري عبده تفرده بالكمال ونقص العبد وحاجته إليه، ويُشهده كمال قدرته وعزته وكمال مغفرته وعفوه ورحمته، وكمال بره وستره وحلمه وتجاوزه وصفحه، وأن رحمته به إحسان إليه لا معارضة وأنه إن لم يتغمده برحمته وفضله فهو هالك لا محالة.

فللَّه كم في تقدير الذنب من حكمة، وكم فيه من تحقيق التوبة للعبد من مصلحة ورحمة.

● لولا تقدير الذنب هلك ابن آدم من العجب.

● ذنب يذل به، أحب إليه من طاعة يدل بها عليه.

● شمعة النصر إنما تنزل في شمعدان الانكسار.

● اعرف قدر ما ضاع، وابك بكاء من يدري مقدار الفائت.

● لو استنشقت ريح الأسحار لأفاق منك قلبك المخمور.

● إذا أراد الله بعبده خيرًا جعله معترفًا بذنبه، ممسكًا عن ذنب غيره، جوادًا بما عنده، زاهدًا فيما عند غيره، محتملًا لأذىٰ غيره، وإن أراد به شرًّا عكس ذلك عليه.

● هلم إلىٰ الدخول على الله، ومجاورته في دار السلام، بلا نصب ولا تعب ولا عناء، بل من أقرب الطرق وأسهلها، وذلك أنك في وقت بين وقتين، وهو في الحقيقة، عمرك وهو وقت الحاضر بين ما مضىٰ، وما يستقبل.

فالذي مضىٰ تصلحه بالتوبة والندم والاستغفار، وذلك شيء لا تعب عليك فيه، ولا نصب ولا معاناة عمل شاق، إنما هو عمل قلب، وتمتنع فيما يستقبل من الذنوب، وامتناعك ترك وراحة، ليس هو عملًا بالجوارح يشق عليك معاناته، وإنما هو عزمٌ ونيةٌ جازمة، تريح بدنك وقلبك وسرك.

فما مضىٰ تصلحه بالتوبة، وما يستقبل تصلحه بالامتناع والعزم والنية. وليس للجوارح في هٰذين نصب ولا تعب، ولكن الشأن في عمرك وهو وقتك الذي بين الوقتين فإن أضعته أضعت سعادتك ونجاتك، وإن حفظته مع إصلاح الوقتين اللذين قبله وبعده بما ذكر نجوت وفزت بالراحة واللذة والنعيم، وحفظه أشق من إصلاح ما قبله وما بعده، فإن حفظه أن تلزم نفسك بما هو أولىٰ بها وأنفع لها وأعظم تحصيلًا لسعادتها، وفي هٰذا تفاوت الناس أعظم تفاوت.

فهي والله أيامك الخالية التي تجمع فيها الزاد لمعادك، إما إلىٰ الجنة وإما إلىٰ النار، فإن اتخذت إليه سبيلًا إلىٰ ربك بلغت السعادة العظمىٰ والفوز الأكبر في هٰذه المدة اليسيرة التي لا نسبة لها إلىٰ الأبد، وإن آثرت الشهوات والراحات واللهو واللعب انقضت عنك بسرعة وأعقبتك الألم العظيم الدائم الذي مقاساته ومعاناته أشق وأصعب وأدوم من معاناة الصبر عن محارم الله والصبر علىٰ طاعته ومخالفته الهوىٰ لأجله.

● الإنابة: هي عكوف القلب على الله ﷻ، كاعتكاف البدن في المسجد لا يفارقه، وحقيقة ذلك: عكوف القلب علىٰ محبته وذكره بالإجلال والتعظيم، وعكوف الجوارح علىٰ طاعته بالإخلاص له والمتابعة لرسوله ﷺ.

ومن لم يعكف قلبه علىٰ الله وحده، عكف علىٰ التماثيل المتنوعة. كما قال إمام الحنفاء لقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢].

فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوف، فكان حظ قومه العكوف علىٰ التماثيل، وكان حظه العكوف علىٰ الرب الجليل.

والتماثيل جمع تمثال وهي: الصور الممثلة.

فتعلق القلب بغير الله، واشتغاله به، والركون إليه، عكوف منه علىٰ التماثيل

التي قامت بقلبه، وهو نظير العكوف علىٰ تماثيل الأصنام، ولهٰذا كان شرك عباد الأصنام بالعكوف بقلوبهم وهممهم وإراداتهم علىٰ تماثيلهم.

فإذا كان في القلب تماثيل قد ملكته واستعبدته بحيث يكون عاكفًا عليها، فهو نظير عكوف الأصنام عليها، ولهٰذا سماه النبي ﷺ عبدًا لها، ودعا عليه بالتعس والنكس، فقال: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**» [أخرجه البخاري ٢٨٨٧] عن أبي هريرة رضي الله عنه.

- اشتر نفسك، فالسوق قائمة والثمن موجود.

❊ ❊ ❊

«التعليق»

إن العبد هو الفقير إلىٰ الله المحتاج إليه، فعليه أن ينصف ربه فيعترف بجهله وفقره وحاجته إلىٰ ربه، ويعلم سعة رحمة الله تعالىٰ للتائبين، وأن الله يحب التوابين، لأن المعاصي سواد والتوبة جلاؤها.

قال الراغب: «التوبة: ترك الذنب لقبحه والندم علىٰ ما فرط منه، والعزيمة علىٰ ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة.

وقال الجرجاني: التوبة هي الرجوع إلىٰ الله بحلِّ عقدة الإصرار عن القلب، ثم القيام بكل حقوق الرب.

وقيل: التوبة: الاعتراف والندم والاقلاع» [«المفردات»/٧٦، و«التعريفات»/٧٤].

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة]. وقال الله تعالىٰ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة]. وقال الله تعالىٰ: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ

لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [غافر]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الشورى]. وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة]. وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء]. وقال الله تعالىٰ عن هود عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود]. وقال الله تعالىٰ عن شعيب عليه السلام: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود].

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مُسيءُ النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مُسيء الليل حتىٰ تطلع الشمس من مغربها**» [رواه مسلم ٢٧٥٩].

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**» [رواه الترمذي ٣٥٣٧، وابن ماجه ٤٢٥٣، وأحمد ٦١٦٠، والحاكم ٢٥٧/٤، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» ١٩٠٣].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه**» [رواه مسلم ٢٧٠٣].

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها حُرِمَهَا في الآخرة**» [البخاري ـ «الفتح» ٥٥٧٥/١٠ واللفظ له، مسلم ٢٠٠٣].

عن عروة ﷺ قال: إن امرأة سرقت في غزوة الفتح، فأُتي بها رسول الله ﷺ، ثم أمر بها فقطعت يَدُهَا، قالت عائشة: فحسنت توبتها وتزوجت، وكانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلىٰ رسول الله ﷺ» [البخاري - «الفتح» ٢٦٤٨/٥، واللفظ له، ومسلم ١٦٨٨].

عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل ابن آدم خَطَاءٌ وخير الخطائين التوابون**» [رواه الترمذي ٢٤٩٩، وابن ماجه ٢٤٥١، وأحمد ١٩٨/٣، والدارمي ٣٩٣/٢، والحاكم ٢٤٤/٤، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» ٤٥١٥].

عن ابن عمر ﷺ قال: إن كنا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مئة مرة من قبل أن يقوم: «**رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم**» [أبو داود ١٥١٦ وهٰذا لفظه، والترمذي ٣٤٣٤، وقال: هٰذا حديث حسن صحيح غريب، وابن ماجه ٣٨١٤، وعزاه شاكر للنسائي في «عمل اليوم والليلة» ص١٤٨].

عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**والله! إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**» [البخاري - «الفتح» ٦٣٠٧/١١].

وعن الأغر بن يسار المزني ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنه ليغان علىٰ قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة**» [مسلم ٢٧٠٢].

(ليغان): الغين والغيم: بمعنىٰ الغفلة عن الذكر الذي كان شأنه الدوام عليه.

وعن عائشة ﷺ أنها قالت: ما صلى النبي ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه ﴿**إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ**﴾ إلا يقول فيها: «**سبحانك ربنا وبحمدك، اللهمَّ اغفر لي**» [البخاري - «الفتح» ٤٩٦٧/٨].

قال عمر بن الخطاب ﷺ: «اجلسوا إلىٰ التوابين فإنهم أرق أفئدة» [«إحياء علوم الدين» ١٥/٤].

❀ ❀ ❀ ❀

العزيمة والمجاهدة

● أخرج بالعزم من هٰذا الفناء الضيق المحشو بالآفات إلىٰ ذلك الفناء الرحب، الذي فيه ما لا عين رأت، فهناك لا يتعذر مطلوب، ولا يفقد محبوب.

● يا مخنث العزم! أين أنت والطريق طريق تعب فيه آدم، وناح لأجله نوح، ورُمي في النار الخليل، واضطَّجع للذبح إسماعيل، وبيع يوسف بثمن بخس، ولبث في السجن بضع سنين، ونشر بالمنشار زكريا، وذُبح السيد الحصور يحيىٰ، وقاسىٰ الضُّر أيوب، وزاد علىٰ المقدار بكاء داود، وسار مع الوحش عيسىٰ، وعالج الفقر وأنواع الأذىٰ محمد ﷺ، تزها أنت باللهو واللعب.

فيا دارها بالحزن إن مزارها قريب، ولكن دون ذلك أهوال

● أقدام العزم بالسلوك، اندفع من بين أيديها سد القواطع.

● القواطع محنٌ يتبين بها الصادق من الكاذب، فإذا خضتها انقلبت أعوانًا لك توصلك إلىٰ المقصود.

● ألفت عجز العادة فلو علت بك همتك رُبا المعالي لاحت لك أنوار العزائم.

● إنما تفاوت القوم بالهمم لا بالصور.

● نزول همة الكسَّاح دلاه في جُب العذرة.

(الكسَّاح): عامل المجاري والنظافة. (جب العذرة): مصرف الغائط والأوساخ.

● بينك وبين الفائزين جبل الهوىٰ، نزلوا بين يديه ونزلت خلفه، فاطوِ فضل منزل تلحق بالقوم.

● قوة الطمع في بلوغ الأمل توجب الاجتهاد في الطلب، وشدة الحذر من فوت المأمول.

● تذكر حلاوة الوصال يهن عليك مُرُّ المجاهدة.

● الهمة العلية لا تزال حائمة حول ثلاثة أشياء:

تعرّف لصفة من الصفات العليا: تزداد بمعرفتها محبة وإرادة.

وملاحظة لمنةٍ: تزداد بملاحظتها شكرًا وطاعة.

وتذكر لذنب: تزداد بتذكره توبة وخشية.

فإذا تعلقت الهمة بسوىٰ هـٰذه الثلاثة جالت في أودية الوساوس والخطرات.

● إنما يقطع السفر، ويصل المسافر، بلزوم الجادة وسير الليل، فإذا حاد المسافر عن الطريق، ونام الليل كله، فمتىٰ يصل إلىٰ مقصده؟!

أغبىٰ الناس من ضل في آخر سفره وقد قارب المنزل.

● قيل لبعض العباد: إلىٰ كم تتعب نفسك؟! قال: راحتها أُريد.

● هان سهر الحراس لما علموا أن أصواتهم بسمع الملك.

● أعلى الهمم همة من استعد صاحبها للقاء الحبيب.

● طائر الطبع يرىٰ الحبة، وعين العقل ترىٰ الشَّرَك، غير أن عين الهوىٰ عمياء.

● علامة صحة الإرادة أن يكون هم المريد رضا ربه، واستعداده للقائه، وحزنه علىٰ وقت مر في غير مرضاته، وأسفه علىٰ قربه والأنس به، وجماع ذلك أن يصبح ويمسي وليس له همٌّ غيره.

● لذة كل أحد علىٰ حسب قدره وهمته، وشرف نفسه فأشرف الناس نفسًا وأعلاهم همة وأرفعهم قدرًا: من لذته في معرفة الله ومحبته والشوق إلىٰ لقائه، والتودد إليه بما يحبه ويرضاه، فلذته في إقباله عليه وعكوف همته عليه، ودون ذلك مراتب لا يحصيها إلا الله، حتىٰ تنتهي إلىٰ من لذته في أخس الأشياء من القاذورات والفواحش في كل شيء من الكلام والفعل والأشغال، فلو عرض عليه ما يلتذ به الأول لم تسمح نفسه بقبوله ولا التفت إليه، وربما

تألمت من ذلك. كما أن الأول إذا عُرض عليه ما يلتذ به هٰذا لم تسمح نفسه به ولم تلتفت إليه ونفرت نفسه منه.

وأكمل الناس لذة من جُمع له بين لذة القلب والروح، ولذة البدن، فهو يتناول لذاته المباحة علىٰ وجه لا ينقص حظه من الدار الآخرة، ولا يقطع عليه لذة المعرفة والمحبة والأنس بربه، فهٰذا ممن قال تعالىٰ فيه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وأبخسهم حظًّا من اللذة، من تناولها علىٰ وجه يحول بينه وبين لذات الآخرة فيكون ممن يقال لهم يوم استيفاء اللذات: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

فهؤلاء تمتعوا بالطيبات، وأولئك تمتعوا بالطيبات، وافترقوا في وجه التمتع: فأولئك تمتعوا بها علىٰ الوجه الذي أذن لهم فيه، فجمع لهم بين لذة الدنيا والآخرة، وهؤلاء تمتعوا بها علىٰ الوجه الذي دعاهم إليه الهوىٰ والشهوة، وسواء أذن لهم فيه أم لا، فانقطعت عنهم لذة الدنيا وفاتتهم لذة الآخرة، فلا لذة الدنيا دامت لهم، ولا لذة الآخرة حصلت لهم.

فمن أحب اللذة ودوامها، والعيش الطيب فليجعل لذة الدنيا موصلًا له إلىٰ لذة الآخرة بأن يستعين بها علىٰ فراغ قلبه لله في إرادته وعبادته، فيتناولها بحكم الاستعانة والقوة علىٰ طلبه، لا بحكم مجرد الشهوة والهوىٰ.

وإن كان ممن زويت عنه لذات الدنيا وطيباتها فليجعل ما نقص منها زيادة في لذة الآخرة، وَيُلْجِم نفسه هاهنا بالترك ليستوفيها كاملة هناك.

فطيبات الدنيا ولذاتها نعم العون لمن صح طلبه لله والدار الآخرة وكانت همته لما هناك، وبئس القاطع لمن كانت هي مقصوده وهمته، وحولها يدندن، وفواتها في الدنيا نعم العون لطالب الله والدار الآخرة، وبئس القاطع النازع من الله والدار الآخرة، فمن أخذ منافع الدنيا علىٰ وجه لا ينقص حظه من الآخرة ظفر بهما جميعًا وإلا خسرهما جميعًا.

❃ ❃ ❃

«التعليق»

العزيمة: دليل علىٰ حسن الظن بالله ﷻ، ومتانة الدين وصدق اليقين، وتوكل على الله جل وعلا.

قال الراغب عن العزيمة: «عقد القلب علىٰ إمضاء الأمر».

وقال الكفوي: «هو القصد علىٰ إمضاء الأمر» [«مفردات القرآن»/٥٦٥، و«الكليات» للكفوي/٦٩١].

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران]. وقال الله تعالىٰ: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران]. وقال الله تعالىٰ عن لقمان لابنه: ﴿يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان]. وقال الله تعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَـٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة، ولا يقولَنَّ: اللهمَّ إن شئت فأعطني، فإنه لا مستكره له**» [البخاري - «الفتح» ٦٣٣٨/١١].

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «بايعنا رسول الله ﷺ علىٰ السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكارهنا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول بالعدل أين كنا لا نخاف في الله لومة لائم» [البخاري ٧١٩٩، ومسلم ١٧٠٩، والنسائي ١٣٩/٧، وابن ماجه ٣٨٦٦].

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: «**إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل**» [البخاري - «الفتح» ٤٥٦٣/٨].

عن أنس بن مالك ﷺ قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ليلةً فخرجوا نحو الصوت فاستقبلهم النبي ﷺ وقد استبرأ الخَبرَ وهو علىٰ فرسٍ لأبي طلحة عُرِيٍ وفي عنقه السيف وهو يقول: «**لم تُراعوا، لم تُراعوا**» ثم قال: «**وجدناه بَحْرًا**»، وقال: «**إنه لبَحرٌ**» [البخاري - «الفتح» ٦/٢٩٠٨].

(وجدناه بحرًا): أي وجدنا الفرس كالبحر في عدوه وسرعة جريه.

قال أبو حازم: «عند تصحيح الضمائر تُغفر الكبائر، وإذا عزم العبد علىٰ ترك الآثام آمَّهُ الفتوح» [«حلية الأولياء للأصبهاني» ٢/٢٣٠].

أما المجاهدة: أن يجاهد نفسه وينهاها عن الهوىٰ وإخضاعها لطاعة الله تعالىٰ، وتأديبها لحسن الخلق وقمع الشيطان ووساوسه.

والمجاهدة: «فطام النفس عن الشهوات، ونزع القلب عن الأماني والشهوات» [انظر: «لسان العرب» ٣/١٣٥].

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ [الشمس]. وقال الله تعالىٰ عن نبي الله يوسف عليه السلام: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف].

عن فضالة بن عبيد؛ يحدث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**كل ميت يُختم علىٰ عمله إلا الذي مات مرابطًا في سبيل الله، فإنه يُنَمَّىٰ له عمله إلىٰ يوم القيامة، ويأمن من فتنة القبر**» وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**المجاهد من جاهد نفسه**» [رواه الترمذي ١٦٢١، وأبو داود ٢٥٠٠ إلىٰ قوله: «**فتنة القبر**»، وأحمد ٦/٢٠ - ٢٢، وهو في «صحيح الترغيب والترهيب» ١٢١٨، و«رياض الصالحين» ١٣٠٠].

عن معقل بن يسار؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**العبادة في الهرج كهجرة إليّ**» [مسلم ٢٩٤٨].

(العبادة في الهرج): المراد بالهرج هنا الفتن واختلاط أمور الناس، وأن أفرادًا يجاهدون أنفسهم علىٰ لزوم العبادة.

عن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه قال: كنت أبيتُ مع رسول الله ﷺ فأتيته بِوَضُوئه وحاجته، فقال لي: «**سل**» فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة قال: «**أو غير ذلك؟**» قلت: هو ذاك، قال: «**فأعني علىٰ نفسك بكثرة السجود**» [مسلم ٤٨٩].

عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب**» [البخاري ـ «الفتح» ١٠/٦١١٤ واللفظ له، ومسلم ٢٦٠٩].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خيرٍ منهم، وإن تقرب إليَّ شبرًا، تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إليَّ ذراعًا، تقربت منه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولةً**» [البخاري ـ «الفتح» ١٣/٧٤٠٥ واللفظ له، ومسلم ٢٦٧٥].

(أنا عند ظن عبدي بي): قال القاضي: قيل معناه بالغفران له إذا استغفر، والقبول إذا تاب، والإجابة إذا دعا، والكفاية إذا طلب الكفاية، وقيل: المراد به الرجاء وتأميل العفو ـ.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يوشك أن يكون خيرَ مال المسلم غنمٌ يتبعُ بها شعف الجبال ومواقع القطْرِ يفرُّ بدينه من الفتن**» [البخاري ـ «الفتح» ١/١٩].

(شعف الجبال): يريد به رأس جبل من الجبال، (مواقع القطر): أي مواطن المطر.

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ صلَّى حتىٰ انتفخت قدماه، فقيل له: أتكلَّفُ هٰذا؟ وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: «**أفلا أكونُ عبدًا شكورًا**» [البخاري ـ «الفتح» ٣/١١٣٠، ومسلم ٢٨١٩ واللفظ له].

(أتكلّفُ هٰذا؟): أي أتتكلف هٰذا؟ فحذفت إحدىٰ التاءين.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «صليت مع النبي ﷺ ليلةً فلم يزل قائمًا حتىٰ هممتُ بأمر سوء، قلنا: وما هممت؟ قال: أن أقعد وأذر النبي ﷺ» [البخاري ـ «الفتح» ٣/١١٣٥].

قال عيسى عليه السلام: «طوبىٰ لمن ترك شهوةً حاضرةً لموعود غائب لم يره» [«إحياء علوم الدين» ٣/٧١].

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في وصيته لعمر حين استخلفه: «إن أول ما أحذرك: نفسك التي بين جنبيك» [«جامع العلوم والحكم»/١٧٢].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن تُوزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر علىٰ من لا تخفىٰ عليه أعمالكم ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ١٨]» [انظر: «مدارج السالكين» ١/١٨٩ - ١٩٠].

سأل أحدهم عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن الجهاد، فقال له: «ابدأ بنفسك فجاهدها، وابدأ بنفسك فاغزها» [«جامع العلوم والحكم»/١٧١].

قال الحسن: «ما الدابة الجموح بأحوج إلىٰ اللجام الشديد من نفسك» [«إحياء علوم الدين» ٣/٧١].

وكان مالك بن دينار يطوف في السوق، فإذا رأىٰ الشيء يشتهيه قال لنفسه: اصبري فوالله ما أمنعك إلا من كرامتك عليَّ» [«إحياء علوم الدين» ٣/٦٧].



الخوف والرجاء

● للعبد ستر بينه وبين الله، وستر بينه وبين الناس، فمن هتك الستر الذي بينه وبين الله هتك الله الستر الذي بينه وبين الناس.

● المخلوق إذا خفته استوحشت منه وهربت منه، والرب تعالىٰ إذا خفته آنست به وقربت إليه.

●يخرج العارف من الدنيا ولم يقض وطره من شيئين: بكاؤه علىٰ نفسه، وثناؤه علىٰ ربه.

● صاح بالصحابة واعظ: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١]. فجزعت للخوف قلوبهم فجرت من الحذر العيون: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧].

● من أعظم الظلم والجهل أن تطلب التعظيم والتوقير لك من الناس وقلبك خالٍ من تعظيم الله وتوقيره، فإنك توقر المخلوق وتجله أن يراك في حال لا توقر الله أن يراك عليها.

قال تعالىٰ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح]، أي: لا تعاملونه معاملة من توقرونه.

والتوقير: العظمة، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩].

قال الحسن: ما لكم لا تعرفون لله حقًّا ولا تشكرونه؟

قال مجاهد: لا تبالون عظمة ربكم.

وقال ابن زيد: لا ترون لله طاعة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تعرفون حق عظمته.

وهٰذه الأقوال ترجع إلىٰ معنىً واحد، وهو أنهم لو عظموا الله وعرفوا حق

عظمته، ووحدوه وأطاعوه وشكروه فطاعته سبحانه واجتناب معاصيه والحياء منه بحسب وقاره في القلب.

ولهٰذا قال بعض السلف: ليعظم وقار الله في قلب أحدكم أن يذكره عندما يستحي من ذكره، فيقرن اسمه به كما تقول: قبح الله الكلب والخنزير والنتن ونحو ذلك، فهٰذا من وقار الله.

● ومن وقاره أن لا تعدل به شيئًا من خلقه، لا في اللفظ بحيث تقول: والله وحياتك، ما لي إلا الله وأنت، وما شاء الله وشئت، ولا في الحب والتعظيم والإجلال، ولا في الطاعة فتطيع المخلوق في أمره ونهيه كما تطيع الله، بل أعظم، كما عليه أكثر الظلمة والفجرة، ولا في الخوف والرجاء، ويجعله أهون الناظرين إليه، ولا يستهين بحقه ويقول: هو مبني علىٰ المسامحة ولا يجعلها علىٰ الفضلة، ويقدم حق المخلوق عليه، ولا يكون الله ورسوله ﷺ في حدٍّ وناحية والناس في ناحية وحدٍّ، فيكون في الحد والشق الذي فيه الناس دون الحد والشق الذي فيه الله ورسوله ﷺ، ولا يعطي المخلوق في مخاطبته قلبه ولبه، ويعطي الله في خدمته بدنه ولسانه دون قلبه وروحه، ولا يجعل مراد نفسه مقدمًا علىٰ مراد ربه. فهٰذا كله من عدم وقار الله في القلب، ومن كان كذلك فإن الله لا يلقي له في قلوب الناس وقارًا ولا هيبة، بل يسقط وقاره وهيبته من قلوبهم، وإن وقروه مخافة شره، فذلك وقار بُغض لا وقار حب وتعظيم، ومن وقار الله أن يستحي من اطلاعه علىٰ سره وضميره فيرىٰ فيه ما يكره ومن وقاره أن يستحي منه في الخلوة أعظم مما يستحي من أكابر الناس.

والمقصود: أن من لا يوقر الله وكلامه وما آتاه من العلم والحكمة، كيف يطلب من الناس توقيره وتعظيمه؟!

❋ ❋ ❋

«التعليق»

الخوف من الله تعالىٰ دليل كمال الإيمان واليقين، ودليل تعظيم العبد ربه جل وعلا وتوقيره، ويبعد الإنسان عن ارتكاب المعاصي والمنكرات.

قال ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الله خلق الخلق ليعرفوه ويعبدوه ويخشوه ويخافوه، ونصب لهم الأدلة الدالة علىٰ عظمته وكبريائه ليهابوه ويخافوه خوف الإجلال ووصف لهم شدة عذابه ودار عقابه التي أعدَّها لمن عصاه ليتقوهُ بصالح الأعمال» [«التخويف من النار»/ ٦ ـ ٧].

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المائدة]. قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [النحل]. وقال الله تعالىٰ: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحشر]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ [الرحمن]. وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان].

عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أن النبي ﷺ دخل علىٰ شاب وهو في الموت، فقال: «**كيف تجدك؟**» قال: والله يا رسول الله إني أرجو الله وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «**لا يجتمعان في قلب عبدٍ في مثل هٰذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف**» [رواه الترمذي ٩٨٣، وابن ماجه ٤٢٦١، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» ٣٤٣٦، وهو في «السلسلة الصحيحة» ١٠٥١].

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ: «**ذكر رجلًا فيمن كان سلف ـ أو قبلكم ـ أتاهُ الله مالًا وولدًا**، يعني أعطاه، **قال فلما حُضِرَ قال لبنيه: أيَّ أبٍ كنت لكم؟ قالوا: خير أبٍ قال: فإنه لم يبتئر عند الله خيرًا** (فسَّرها قتادة: لم يَدَّخِر) **وإن يَقْدَمْ على الله يُعذبه، فانظروا فإذا مِتُّ فأحرقوني حتىٰ إذا صرت فحمًا فاسحقوني ـ أو قال فاسهكوني ـ ثم إذا كان ريحٌ عاصفٌ فأذروني فيها،**

فأخذ مواثيقهم علىٰ ذلك وَرَبِّي، ففعلوا، فقال الله: كن، فإذا رجلٌ قائمٌ ثم قال: أيْ عبدي ما حملك علىٰ ما فعلت؟ قال: مخافتك، أو فرقٌ منك فما تلافاه أن رحمه الله» [البخاري ـ «الفتح» ٦٤٨١/١١ واللفظ له، ومسلم ٢٧٥٧].

(فما تلافاه): أي تداركه، (وما) موصولة، أي: الذي تلافاه هو الرحمة، أو نافية وصيغة الاستثناء محذوفة.

وعن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هٰذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

قالت عائشة: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: «**لا يا بنت الصِّدِّيق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يُقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات**» [رواه الترمذي ٣١٧٥، وابن ماجه ٤١٩٨، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» ٢٥٣٧].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يحشر الناس يوم القيامة حُفاةً عراةً غرلًا**» قلت: يا رسول الله! النساء والرجال جميعًا، ينظر بعضهم إلىٰ بعض؟ قال ﷺ: «**يا عائشةُ! الأمرُ أشدُّ من أن ينظر بعضهم إلىٰ بعض**» [رواه مسلم ٢٨٥٩].

(غرلًا): أي غير مختونين، جمع أغرل وهو الذي لم يختن وبقيت معه غرلته، وهي قلفته وهي الجلدة التي تقطع في الختان، والمقصود أنهم يحشرون كما خلقوا ولا يفقد منهم شيء، حتىٰ الغرلة تكون معهم.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لو نادىٰ منادٍ من السماء: أيها الناس! إنكم داخلون الجنة كلكم إلا رجلًا واحدًا لخفت أن أكون أنا هو» [«التخويف من النار» لابن رجب/١٧].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما طُعِنَ: «لو أن لي طِلاعَ الأرض ذهبًا لافتديت به من عذاب الله قبل أن أراه» [«شرح السنة» للبغوي ٣٧٣/١٤].

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «رأىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه في يدي لحمًا مُعلَّقًا، قال: ما هٰذا يا جابر؟ قلت: اشتهيت لحمًا، فاشتريته، فقال عمر: كلما اشتهيت اشتريت، أما تخاف هٰذه الآية ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾» [«مناقب عمر بن الخطاب» لابن جوزي/١٧٨].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «وعد الله المؤمنين الذين خافوا مقامهُ وأدَّوا فرائضه الجنة» [«التخويف من النار» لابن رجب/٧].

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن المؤمن يرىٰ ذنوبه كأنه جالسٌ في أصل جبل يخشىٰ أن ينقلب عليه، وإن الفاجر يرىٰ ذنوبه كذباب مرَّ علىٰ أنفه فقال به هكذا» [«شرح السنة» للبغوي ١٤/٣٧٤].

قال أبو عمر الدمشقي: «حقيقة الخوف ألا تخاف مع الله أحدًا» [«شعب الإيمان» للبيهقي ٩٤٧].

أما الرجاء: للعبد أن يرجو رحمة الله تعالىٰ وفضله وإحسانه، وأن يتعلق قلبه به، لعدم استغنائه طرفة عين.

قال ابن القيم رحمه الله: الرجاء هو النظر إلىٰ سعة رحمة الله.

وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالىٰ والارتياح لمطالعة كرمه.

وقيل: «هو الثقة بجود الرب» [«مدارج السالكين» ١/٣٧].

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾ [العنكبوت]. وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٠﴾ [فاطر]. وقال الله تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩﴾ [الزمر]. وقال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ۝١١٠﴾ [الكهف]. وقال الله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾ [الأحزاب].

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو نائم عليه ثوب أبيض، ثم أتيته فإذا هو نائم، ثم أتيته وقد استيقظ، فجلست إليه فقال: «**ما من عبد قال: لا إلـٰه إلا الله ثم مات علىٰ ذلك إلا دخل الجنة**» قلت: وإن زنىٰ وإن سرق؟

قال: «**وإن زنىٰ وإن سرق**» قلت: وإن زنىٰ وإن سرق، قال: «**وإن زنىٰ وإن سرق**» ثلاثًا ثم قال في الرابعة: «**علىٰ رغم أنف أبي ذر**» قال: فخرج أبو ذر وهو يقول: «وإن رغم أنف أبي ذر» [رواه مسلم ٩٤].

عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**إن لله مئة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش ولدها، وأخَّر الله تسعًا وتسعين رحمةً يرحم بها عباده يوم القيامة**» [البخاري ـ «الفتح» ١٠/٦٠٠، ومسلم ٢٧٥٢ واللفظ له].

عن أبي هريرة ﷺ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**ينزل ربنا تبارك وتعالىٰ كل ليلة إلىٰ السماء الدنيا، حين يبقىٰ ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**» [البخاري ـ «الفتح» ٣/١١٤٥، ومسلم ٧٥٨].

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من لقي الله لا يُشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به دخل النار**» [رواه مسلم ٩٣].

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما قضىٰ الله الخلق كتب في كتابِهِ، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي**» [البخاري ـ «الفتح» ٦/٣١٩٤ واللفظ له، ومسلم ٢٧٥١].

عن محمد بن عبد الملك بن هاشم قال: سمعت ذا النون المصري يقول: «اللهمَّ إليك تقصد رغبتي، وإياك أسأل حاجتي، ومنك أرجو نجاح طلبتي، وبيدك مفاتيح مسألتي، لا أسأل الخير إلا منك، ولا أرجوه من غيرك، ولا أيأَسُ من روحك بعد معرفتي بفضلك» [«حلية الأولياء» لأبي نعيم ٩/٣٣٣].

قال أبو عمران السُّلمي مُنشدًا:

وإني لآتي الذنب أعرف قدره ... وأعلم أن اللَّه يعفو ويغفرُ
لئن عظَّمَ الناسُ الذنوب فإنها ... وإن عظُمت في رحمة اللَّه تصغرُ

[«حسن الظن» لابن أبي الدنيا/١٠٦].

❀ ❀ ❀ ❀

الإيمان والتوحيد

● في «المسند» و«صحيح أبي حاتم» من حديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أصاب عبدًا همٌّ ولا حزنٌ فقال: اللَّهمَّ! إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي إلا أذهب الله همه وغمه، وأبدله مكانه فرحًا**»، قالوا: يا رسول الله أفلَا نتعلمهن؟! قال ﷺ: «**بلىٰ، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن**» [انظر: «السلسلة الصحيحة» ١٩٩، وكذلك «الكلم الطيب» ١٢٣ للألباني].

فتضمن هٰذا الحديث العظيم أمورًا من: المعرفة والتوحيد والعبودية.

● تأمل خطاب القرآن! تجد ملكًا له الملك كله، وله الحمد كله، أزمَّة الأمور كلها بيده، ومصدرها منه ومردها إليه، مستويًا علىٰ سرير ملكه، لا يخفىٰ عليه خافية في أقطار مملكته عالمًا بما في نفوس عبيده، مطلعًا علىٰ أسرارهم وعلانيتهم منفردًا بتدبير المملكة، يسمع ويرىٰ ويعطي ويمنع، ويثيب ويعاقب، ويكرم ويهين، ويخلق ويرزق، ويميت ويحيي ويقدر ويقضي ويدبر، الأمور نازلة من عنده دقيقها وجليلها، وصاعدة إليه، لا تتحرك في ذرة إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، فتأمل كيف تجده يُثني علىٰ نفسه ويمجد نفسه، ويحمد نفسه، وينصح عباده، ويدلهم علىٰ ما فيه سعادتهم وفلاحهم، ويرغبهم فيه، ويحذرهم مما فيه هلاكهم ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه فيذكرهم بنعمه عليهم، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها، ويحذرهم من نقمه، ويذكرهم بما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه وما

أعد لهم من العقوبة إن عصوه، ويخبرهم بصنعه في أوليائه وأعدائه، وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء.

ويثني علىٰ أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم، ويذم أعداءه بسيء أعمالهم وقبيح صفاتهم، ويضرب الأمثال وينوع الأدلة والبراهين، ويجيب عن شبه أعدائه أحسن الأجوبة، ويصدق الصادق ويكذب الكاذب، ويقول الحق ويهدي السبيل، ويدعو إلىٰ دار السلام، ويذكر أوصافها وحسنها ونعيمها، ويحذر من دار البوار، ويذكر عذابها وقبحها وآلامها، ويذكر عباده بفقرهم إليه وشدة حاجتهم إليه من كل وجه، وأنهم لا غنىٰ لهم عنه طرفة عين، ويذكر غناه عنهم وعن جميع الموجودات، وأنه الغني بنفسه عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه بنفسه، وأنه لا ينال أحد ذرة من الخير فما فوقها إلا بفضله ورحمته، ولا ذرة من الشر فما فوقها إلا بعدله وحكمته، ويشهد من خطابه عتابه لأحبائه ألطف عتاب، وأنه مع ذلك مقيل عثراتهم وغافر زلاتهم، ومقيم أعذارهم، ومصلح فسادهم، والدافع عنهم، والمحامي عنهم، والناصر لهم، والكفيل بمصالحهم، والمنجي لهم من كل كرب، والموفي لهم بوعده، وإنه وليهم الذي لا ولي لهم سواه، فهو مولاهم الحق ونصيرهم علىٰ عدوهم، فنعم المولىٰ ونعم النصير.

فإذا شهدت القلوب من القرآن ملكًا عظيمًا رحيمًا جوادًا جميلًا هٰذا شأنه، فكيف لا تحبه، وتنافس في القرب منه، وتنفق أنفاسها في التودد إليه، ويكون أحب إليها من كل ما سواه ورضاه آثر عندها من رضا كل ما سواه، وكيف لا تلهج بذكره، ويصير حبه والشوق إليه والأنس به هو غذاؤها وقوتها ودواؤها، بحيث إن فقدت ذلك فسدت وهلكت ولم تنتفع بحياتها؟!

● أرض الفطرة رحبة قابلة لما يغرس فيها، فإن غرست شجرة الإيمان والتقوىٰ أورثت حلاوة الأبد، وإن غرست شجرة الجهل والهوىٰ فكل الثمر مر.

● سبق العلم بنبوة موسىٰ عليه السلام وإيمان آسية (امرأة فرعون)، فسيق تابوته إلىٰ بيتها فجاء طفل منفرد عن أم إلىٰ امرأة خالية عن ولد، فللّه كم في هٰذه القصة من عبرة، كم ذبح فرعون في طلب موسىٰ من ولد، ولسان القدر يقول: لا نربيه إلا في حِجرك.

● وعين الرضا لكل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا.

● الأصول التي انبنىٰ عليها سعادة العبد ثلاثة، ولكل واحد منها ضده، فمن فقد ذلك الأصل علىٰ ضده:

التوحيد وضده الشرك، السنة وضدها البدعة، الطاعة وضدها المعصية.

ولهٰذا الثلاثة ضد واحد: وهو خلو القلب من الرغبة في الله وفيما عنده، ومن الرهبة منه ومما عنده.



«التعليق»

الإيمان: هو الاستسلام الكامل لشرع الله تعالىٰ المتضمن الإقرار باللسان والتصديق بالقلب والعمل بالجوارح، وبذلك يحصل للعبد المؤمن الحياة الطيبة في الدنيا، والفوز بالجنة والنعيم المقيم في الآخرة.

قال الكفوي: «الإيمان هو الاعتقاد الزائد علىٰ العلم» [«الكليات»/٢١٣].

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة]. وقال الله تعالىٰ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء]. وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الحج]. وقال الله تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل]. وقال الله تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنبياء].

عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، ومن أحب عبدًا**

لا يُحبُّهُ إلا لله، ومن يكرهُ أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله كما يكرهُ أن يلقىٰ في النار» [البخاري ـ «الفتح» ١/٢١، ومسلم ٤٣].

عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ مُرَّ عليه بجنازة فقال: «**مستريحٌ ومستراحُ منه**» قالوا: يا رسول الله! ما المستريحُ والمستراح منه؟ قال: «**العبد المؤمن مُستريحٌ من نصب الدنيا وأذاها إلىٰ رحمة الله عز وجل، والعبد الفاجر يستريحُ منه العباد والبلاد والشجر والدواب**» [رواه البخاري ـ «الفتح» ١١/٦٥١٢].

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغُرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدُّري الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم**»، قالوا: يا رسول الله! تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: «**بلىٰ، والذي نفسي بيده! رجالٌ آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين**» [مسلم ١٨٨٥].

(الكوكب الدري): العظيم المضيء. (الغابر من الأفق): الذي يميل إلىٰ جهة الغرب.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثٌ إذا خرجن لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض**» [رواه مسلم ١٥٨، والبخاري ـ «الفتح» ٨/٤٦٣٥ نحوه مختصرًا].

قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «مثل المؤمن مثل النحلة تأكل طيبًا وتضع طيبًا» [«الإيمان» لابن أبي الدنيا/٣٠].

قال عمرو بن عبيد بن عمر رحمه الله: «الإيمان هيوب» [«الإيمان» لابن أبي شيبة/٦].

(هيوب): أي يهابه الناس، أو يهاب الذنوب.

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «إن للإيمان فرائض وشرائع وحدودًا وسننًا فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان» [البخاري معلقًا مجزومًا به، وقال الحافظ في «الفتح» ١/٦١ وصله أحمد وأبو بكر ابن أبي شيبة في كتاب «الإيمان»].

وقال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لقيت أكثر من ألف من العلماء بالأمصار فما رأيت أحدًا منهم يختلف في أن الإيمان قولٌ وعملٌ ويزيد وينقص» [«فتح الباري شرح صحيح البخاري» ١/٦١].

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «اللَّهمَّ زدنا إيمانًا ويقينًا وفقهًا» [قال الحافظ في «الفتح» ١/٤٨: رواه أحمد في الإيمان، وإسناده صحيح].

أما التوحيد: فمن حققه غفر له ذنوبه جميعًا، ودخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، وله الهدىٰ والكمال والأمن التام في الدنيا والآخرة، ويخفف عنه المكاره ويُهوِّن عليه الآلام ويتحرر من رق المخلوقين والتعلق بهم وخوفهم ورجائهم، والعمل لأجلهم، ويحترز به من الشيطان وشرور الحاسدين، ويسعد بالحياة الطيبة، ويفرج عنه الكربات في الدنيا والآخرة وتنال به شفاعة سيد الأولين والآخرين، ويشفع لأهله بإذن الله يوم القيامة لعظيم مكانته عند الله تعالىٰ، وأن جميع الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة متوقفة في قبولها وكمالها وقدرها ووزنها وترتيب الثواب عليها علىٰ التوحيد الخالص لله تعالىٰ.

قال ابن منظور: «التوحيد: الإيمان بالله وحده لا شريك له، والله الواحد الأحد، ذو الوحدانية والتوحيد» [«لسان العرب» مادة «وحد»].

وقال صاحب «البصائر»: «التوحيد الحقيقي الذي هو سبب النجاة، ومادة السعادة في الدار الآخرة هو ما بيّنه الله تعالىٰ وهدانا إليه في كتابه العزيز: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران].

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب: «التوحيد: هو إفراد الله سبحانه بالعبادة، وهو دين الرسل الذين أرسلهم الله به إلىٰ عباده» [«مجموعة التوحيد»، الرسالة الثالثة/٧٠].

وقال الدكتور ناصر العمر: التوحيد شرعًا: إفراد الله بحقوقه، وهو لله ثلاثة حقوق: حقوق مُلكٍ، وحقوق عبادةٍ، وحقوق أسماء وصفات» [«التوحيد أولًا»/١٥].

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة]. وقال الله تعالىٰ: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ

﴿أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف]. قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم]. وقال الله تعالىٰ: ﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [النحل]. وقال الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر]. وقال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾ [الجن]. وقال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص].

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُعَذَّبُ ناسٌ من أهل التوحيد في النار حتىٰ يكونوا فيها حُممًا ثم تدركهم الرحمة، فيخرجون ويطرحون علىٰ أبواب الجنة، قال: فترشُّ عليهم أهل الجنة الماء فينبتون كما ينبتُ الغثاء في حمالة السَّيل، ثم يدخلون الجنة**» [رواه الترمذي ٢٥٩٧، وأحمد ٣٩١/٣، وهو في «السلسلة الصحيحة» ٢٤٥١].

(الحمم): جمع حممة وهي الفحمة. (فينبتون كما ينبت الغثاء في حمالة السيل): المراد أنهم سرعان ما تعود إليهم أبدانهم وأجسامهم بعد إحراق النار لها، وذلك مثل ما يجيء به السيل من غثاء ونحوه، فيستقر علىٰ الشاطئ فينبت في يوم وليلة.

عن جابر رضي الله عنه؛ أتىٰ النبيَّ ﷺ رجلٌ فقال: يا رسول الله ما الموجبتان؟! قال: «**من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئًا دخل النار**» [رواه مسلم ٩٣].

عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**أتاني جبريل فبشرني أنه من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة**»، قلت: وإن سرق وإن زنىٰ؟ قال: «**وإن سرق وإن زنى**» [البخاري ـ «الفتح» ٧٤٨٧/١٣، ومسلم ٩٤].

قال مجاهد: «كلمة التقوىٰ: لا إلـٰه إلا الله» [«فتح الباري» ٥٧٥/٨].

قال الإمام البخاري: قال عِدةٌ من أهل العلم في قوله تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر] عن قول: «لا إلـٰه إلا الله» قال ابن حجر: «من هؤلاء: أنس بن مالك، وعبد الله بن عمر، ومجاهد» [«الفتح» ٩٧/١١ ـ ٩٨].

وقال الشاعر:

فيا عجبًا كيف يُعصىٰ الإلٰه أم كيف يجحده الجاحد؟!
وفي كل شيء له آية تدل علىٰ أنه الواحد»

[«الإملاء في إشكالات إحياء علوم الدين»/ ٢٠].

❀ ❀ ❀ ❀

الصبـر

● من خلقه الله للجنة لم تزل هداياه تأتيه من المكاره، ومن خلقه للنار لم تزل هداياه تأتيه من الشهوات.

● من تلمَّحَ حلاوة العافية هانت عليه مرارة الصبر.

● تجوع الحرة ولا تأكل بثديها.

● سفر الليل لا يطيقه إلا مُضمر المجاعة، والنجائب في الأول، وحاملات الزاد في الأخير.

● طالب الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيره وطلبه إلا بحبسين:

ـ حبس قلبه في طلبه ومطلوبه، وحبسه عن الالتفات إلىٰ غيره، وحبس لسانه عما لا يفيد، وحبسه علىٰ ذكر الله، وما يزيد في إيمانه ومعرفته.

ـ وحبس جوارحه عن المعاصي والشهوات، وحبسها علىٰ الواجبات والمندوبات فلا يفارق الحبس حتىٰ يلقىٰ ربه فيخلصه من السجن إلىٰ أوسع فضاء وأطيبه ومتىٰ لم يصبر علىٰ هٰذين الحبسين، وفر منهما إلىٰ قضاء الشهوات أعقبه ذلك الحبس الفظيع عند خروجه من الدنيا، فكل خارج من الدنيا: إما متخلص من الحبس، وإما ذاهب إلىٰ الحبس، وبالله التوفيق.

● الطريق إلىٰ الله خالٍ من أهل الشك، ومن الذين يتبعون الشهوات وهو معمور بأهل اليقين والصبر، وهم علىٰ الطريق كالأعلام: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة].

● يا أقدام الصبر احملي، بقي القليل.

● الجاهل يشكو الله إلىٰ الناس، وهٰذا غاية الجهل بالمشكو والمشكو إليه، فإنه لو عرف ربه لما شكاه، ولو عرف الناس لما شكا إليهم. ورأىٰ بعض السلف رجلًا يشكو إلىٰ رجل فاقته وضرورته، فقال: يا هٰذا، والله ما زدت

علىٰ أن شكوت من يرحمك إلىٰ مَن لا يرحمك، وفي ذلك قيل:

وإذا شكوت إلىٰ ابن آدم إنما تشكو الرحيم إلىٰ الذي لا يرحم

والعارف إنما يشكو إلىٰ الله وحده، وأعرف العارفين من جعل شكواه إلىٰ الله من نفسه لا من الناس، فهو يشكو من موجبات تسليط الناس عليه، فهو ناظر إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النساء: ٧٩]. وقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فالمراتب ثلاث:

- أخسها أن تشكو الله إلىٰ خلقه.
- وأعلاها أن تشكو نفسك إليه.
- وأوسطها أن تشكو خلقه إليه.

● بين رعاية الحقوق مع الضر، ورعايتها مع العافية، بون بعيد.

● سأل رجل الشافعي فقال: يا أبا عبد الله! أيما أفضل للرجل أن يُمكِّن أو يبتلي؟!

قال الشافعي: لا يُمكَّن حتىٰ يُبتلىٰ.

فإن الله ابتلىٰ نوحًا وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فلما صبروا مكَّنهم، فلا يظن أحد أنه يخلص من الألم البتة.

❊ ❊ ❊

«التعليق»

الصبر: دليل علىٰ كمال الإيمان، وقوة اليقين، وهداية في القلب ويثمر معية الله تعالىٰ ومحبته وبركته، وهو مظهر من مظاهر الرجولة والشجاعة، وعلامة علىٰ حسن الخاتمة، والفوز بالجنة والنجاة من النار.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد ذكر الله الصبر في كتابه في أكثر من تسعين موضعًا، وقرنه بالصلاة في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة] وجعل الإمامة في الدين موروثه عن الصبر واليقين، بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة] فإن الدين كله عِلمٌ بالحق وعمل به، والعمل به لا بد فيه من الصبر، بل وطلب عِلمه يحتاج إلىٰ الصبر» [«البصائر» ٣٧٦/٣].

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس]. وقال الله تعالىٰ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام]. قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف]. وقال الله تعالىٰ: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ [يوسف]. وقال الله تعالىٰ: ﴿قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف]. وقال الله تعالىٰ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل]. وقال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد].

عن أسيد بن حُضير؛ أن رجلًا من الأنصار خلا برسول الله ﷺ فقال: ألا تستعملني كما استعملت فُلانًا، فقال: «**إنكم ستلقون بعدي أثرةً، فاصبروا حتىٰ تلقوني علىٰ الحوض**» [البخاري ـ «الفتح» ٣٧٩٢/٧، ومسلم ١٨٤٥ واللفظ له].

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لعطاء: ألا أُريك امرأةً من أهل الجنة؟ قلت: بلىٰ، قال: هٰذه المرأة السوداء، أتتِ النبي ﷺ قالت: إني أُصرعُ وإني أتكشف فادع الله لي، قال: «**إن شئت صبرت ولكِ الجنة، وإن شئتِ دعوت الله أن يعافيك**» قالت: أصبرُ، قالت: فإني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف فدعا لها» [البخاري ـ «الفتح» ٥٦٥٢/١٠، ومسلم ٢٥٧٦ واللفظ له].

عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله عز وجل قال: إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيه، فصبر، عوضته منهما الجنة**، يريد عينيه» [البخاري ـ «الفتح» ٥٦٥٣/١٠].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من ابتلي بشيء من البنات فصبر عليهنَّ كن له حجابًا من النار**» [انظر: «صحيح سنن الترمذي» ١٥٦١].

عن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابته سراءُ شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراءُ صبر فكان خيرًا له**» [مسلم ٢٩٩٩].

قال عمر رضي الله عنه: «وجدنا خير عيشنا الصبر» [«الدر المنثور» ١٦٣/١].

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الصبر مطية لا تكبُو» [«عدة الصابرين» لابن القيم/١٧].

قيل لربيعة بن عبد الرحمٰن: ما منتهىٰ الصبر؟ قال: يكون يوم تصيبه المصيبة مثله قبل أن تصيبه» [«الدر المنثور» ٣٧٨/١].

قال أبو علي الدقاق: «فاز الصابرون بعز الدارين، لأنهم نالوا من الله معيته فإن الله مع الصابرين» [«مدارج السالكين» ١٦٦/٢].

قيل: الصبر هو الاستعانة بالله، وقيل: هو ترك الشكوىٰ، وقيل:

الصبر مثل اسمه مُرٌّ مذاقَتُهُ ... لكن عواقبه أحلىٰ من العسل

[«تفسير ابن كثير» ٣/٤٨٩].

وقال الثوري عن بعض أصحابه: ثلاث من الصبر: ألا تحدث بوجعك، ولا بمصيبتك، ولا تزكي نفسك» [كتاب «الأخلاق الإسلامية وأسسها» لعبد الرحمٰن الميداني/٣٠٦ ـ ٣٠٧ وبتصرف يسير].

❀ ❀ ❀ ❀

التقوىٰ

● التقوىٰ ثلاث مراتب:

إحداها: حمية القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات.

والثانية: حميتها عن المكروهات.

والثالثة: الحمية عن الفضول وما لا يعني.

فالأولىٰ: تعطي العبد حياته.

والثانية: تفيده صحته وقوته.

والثالثة: تكسبه سروره وفرحه وبهجته.

● من عَظّمَ وقار الله في قلبه أن يعصيه، وقر الله في قلوب الخلق أن يذلوه.

● ودع ابن عون رجلًا فقال: عليك بتقوىٰ الله، فإن المتقي ليست عليه وحشة.

● وقال زيد بن أسلم: كان يقال: من اتق الله أحبه الناس وإن كرهوه.

● وقال الثوري لابن أبي ذئب: إن اتقيت الله كفاك الناس، وإن اتقيت الناس لن يغنوا عنك من الله شيئًا.

● وقال سليمان بن داود عليه السلام: أوتينا مما أوتي الناس ومما لم يؤتوا، وعلمنا مما علم الناس ومما لم يعلموا فلم نجد شيئًا أفضل من تقوىٰ الله في السر والعلانية، والعدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنىٰ.

● جمع النبي ﷺ بين تقوىٰ الله وحسن الخلق، لأن تقوىٰ الله تصلح ما بين العبد وبين ربه، وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه فتقوىٰ الله توجب له محبة الله، وحسن الخلق يدعو الناس إلىٰ محبته.

● وفي «الزهد» للإمام أحمد أثر إلٰهي: «ما من مخلوق اعتصم بمخلوق دوني إلا قطعت أسباب السماوات والأرض دونه، فإن سألني لم أعطه، وإن دعاني لم أجبه، وإن استغفرني لم أغفر له. وما من مخلوق اعتصم بي دون خلقي إلا ضمنت السماوات والأرض رزقه، فإن سألني أعطيته، وإن دعاني أجبته، وإن استغفرني غفرت له».

● فالكيس يقطع من المسافة بصحة العزيمة، وعلو الهمة، وتجريد القصد، وصحة النية مع العمل القليل، أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير والسفر الشاق فإن العزيمة والمحبة تذهب المشقة وتطيب السير، والتقدم والسبق إلىٰ الله سبحانه إنما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة، فيتقدم صاحب الهمة مع سكونه صاحب العمل الكثير بمراحل، فإن ساواه في همته تقدم عليه بعمله، وهٰذا موضع يحتاج إلىٰ تفصيل يوافق فيه الإسلام والإحسان.

● ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون، وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكيًا محزونًا حكيمًا حليمًا سكينًا.

ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافيًا ولا غافلًا ولا صخابًا ولا صياحًا ولا حديدًا.

❋ ❋ ❋

«التعليق»

إذا لم يسلك العبد مسلك التقوىٰ والطاعة، وانخرط في المعصية، فإن ذلك بسبب إعراض الله تعالىٰ عنه، فليراجع حساباته، فإن الله لا يعرض عنه إلا بسبب من عنده، فعليه إذًا أن يستجيب لله وللرسول وأن يَسْلُكَ أسباب القبول.

والتقوىٰ: سبب للعون والنصرة، ومحبة الله تعالىٰ، وهي سبب لتكفير الذنوب، والنجاة من العذاب.

قال الراغب: «التقوىٰ في تعارف الشرع: حفظ النفس عما يؤثم وذلك بترك المحظور ويتم ذلك بترك بعض المباحات، لما روي: الحلال بيّن والحرام بيّن، ومن رتع حول الحِمىٰ فحقيق أن يقع فيه» [«المفردات»/٥٣٠].

وقال الجرجاني: التقوىٰ في الطاعة يُراد بها الإخلاص، وفي المعصية يُراد بها الترك والمحظور، وقيل: هي المحافظة علىٰ آداب الشرعية ومجانبة كل ما يُبعد المرء عن الله تعالىٰ، وقيل: هي ترك حظوظ النفس ومباينة الهوىٰ» [«التعريفات»/٦٥].

وقال الفيروزآبادي: التقوىٰ البالغة الجامعة: اجتناب كل ما فيه ضرر وهو المعصية والفضول، فعلىٰ ذلك تنقسم إلىٰ فرض ونفل.

وقيل: «هي التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك، وقيل: هي امتثال أوامره تعالىٰ واجتناب نواهيه بفعل كل مأمور به، وترك كل منهي عنه حسب الطاقة» [«بصائر ذوي التميز» ٢/ ٣٠٠].

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران]. وقال الله تعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٧٩﴾ [آل عمران]. وقال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾ [المائدة]. وقال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [المائدة]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢٣﴾ [آل عمران]. وقال الله تعالىٰ: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ٤٤ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ٤٥﴾ [التوبة]. وقال الله

تعالىٰ: ﴿كَلَّا إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ [المدثر]. وقال الله تعالىٰ: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف]. وقال الله تعالىٰ: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ [البقرة].

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الشعراء].

عن أبي ذر ومعاذ بن جبل ﵄، عن رسول الله ﷺ قال: «**اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**» [رواه الترمذي ١٩٨٧، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» ٩٦].

(اتق الله): اجعل بينك وبين عقابه وسخطه وغضبه وقاية. (خالق): أي عاملهم وخالطهم.

عن أبي هريرة ﵁ قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال: «تقوىٰ الله وحسن الخلق». وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ قال: «**الفم والفرج**» [رواه الترمذي ٢٠٠٤، وهو في «الصحيحة» ٩٧٧].

عن عبد الله بن مسعود ﵁، عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «**اللَّهمَّ! إني أسألك الهدىٰ والتقىٰ والعفاف والغنىٰ**» [مسلم ٢٧٢١].

عن سعد ابن أبي وقاص ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي**» [رواه مسلم ٢٩٦٥].

سأل رجل أبا هريرة ﵁ ما التقوىٰ؟ قال: هل أخذت طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عدلت عنه، أو جاوزته، أو قصرت عنه، قال: ذاك التقوىٰ» [«الدر المنثور» ٦١/١].

قال أبو الدرداء ﵁: تمام التقوىٰ أن يتقي الله العبدُ حتىٰ يتقيه من مثقال ذرةٍ، وحتىٰ يترك بعض ما يرىٰ أنه حلال خشية أن يكون حرامًا يكون حجابًا بينه وبين الحرام» [«الدر المنثور» ٦١/١].

قال عمر بن عبد العزيز رحمة الله تعالىٰ: «التقي مُلْجَمٌ لا يفعل كل ما يريد» [«شرح السنة» ١٤/٣٤١].

وقال طلق بن حبيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التقوىٰ العمل بطاعة الله علىٰ نورٍ من الله، رجاء رحمة الله، والتقوىٰ ترك معاصي الله علىٰ نورٍ من الله، مخافة عذاب الله» [«المصنف» لابن أبي شيبة ١١/٢٣، و«الدر المنثور» للسيوطي ١/٦١].

❀ ❀ ❀ ❀

التفويض والتوكل

- لما طلب آدم الخلود في الجنة من جانب الشجرة عوقب بالخروج منها، ولما طلب يوسف الخروج من السجن من جهة صاحب الرؤيا لبث فيه بضع سنين.

- التوكل علىٰ الله نوعان:

أحدهما: توكل عليه في جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية أو دفع مكروهاته ومصائبه الدنيوية.

والثاني: التوكل عليه في حصول ما يحبه هو ويرضاه من الإيمان واليقين والجهاد والدعوة إليه.

وبين النوعين من الفضل ما لا يحصيه إلا الله، فمتىٰ توكل عليه العبد في النوع الثاني حق توكله كفاه النوع الأول تمام الكفاية، ومتىٰ توكل عليه في النوع الأول دون الثاني كفاه أيضًا، لكن لا يكون له عاقبة المتوكل عليه فيما يحبه ويرضاه.

فأعظم التوكل عليه التوكل في الهداية، وتجريد التوحيد، ومتابعة الرسول ﷺ، وجهاد أهل الباطل، فهٰذا توكل الرسل وخاصة اتباعهم، والتوكل تارة يكون توكل اضطرار وإلجاء، بحيث لا يجد العبد ملجأ ولا وزرًا إلا التوكل، كما إذا ضاقت عليه الأسباب وضاقت عليه نفسه وظن أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وهٰذا لا يختلف عنه الفرج والتيسير البتة.

وتارة يكون توكل اختيار، وذلك التوكل مع وجود السبب المفضي إلىٰ المراد، فإن كان السبب مأمورًا به ذم علىٰ تركه، وإن قام بالسبب وترك التوكل ذم علىٰ تركه أيضًا، فإنه واجب باتفاق الأمة ونص القرآن، والواجب القيام بهما والجمع بينهما. وإن كان السبب محرمًا حرم عليه مباشرته وتوحد السبب

في حقه في التوكل فلم يبق سبب سواه. فإن التوكل من أقوىٰ الأسباب في حصول المراد ودفع المكروه، بل من أقوىٰ الأسباب علىٰ الإطلاق، وإن كان السبب مباحًا نظرت هل يضعف قيامك به التوكل أو لا يضعفه؟ فإن أضعفه وفرَّق عليك قلبك وشتت همك فتركه أولىٰ، وإن لم يضعفه فمباشرته أولىٰ، لأن حكمة أحكم الحاكمين اقتضت ربط المسبب به فلا تعطل حكمته مهما أمكنك القيام بها، ولا سيما إذا فعلته عبودية، فتكون قد أتيت بعبودية القلب بالتوكل، وعبودية الجوارح بالسبب المنوىٰ به القُربة، والذي يحقق التوكل القيام بالأسباب المأمور بها، فمن عطلها لم يصح توكله كما أن القيام بالأسباب المفضية إلىٰ حصول الغير يحقق رجاءه، فمن لم يقم بها كان رجاؤه تمنيًا، كما أن من عطلها يكون توكله عجزًا وعجزه توكلًا.

وسرّ التوكل وحقيقته هو اعتماد القلب على الله وحده، فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها، كما لا ينفعه قوله: توكلت على الله، مع اعتماده علىٰ غيره وركونه إليه وثقته به، فتوكل اللسان شيء، وتوكل القلب شيء، كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء، وتوبة القلب وإن لم ينطق اللسان شيء، فقول العبد: توكلت على الله مع اعتماد قلبه علىٰ غيره، مثل قوله: تبت إلىٰ الله وهو مصر علىٰ معصيته مرتكب لها.

- لا تسأل سوىٰ مولاك، فسؤال العبد غير سيده تشنيع عليه.

❋ ❋ ❋

«التعليق»

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن التوكل والتفويض: «من يُفوض أمره إلىٰ الله يتبرأ من الحول والقوة، ويفوض الأمر لصاحب الأمر من غير أن يُقيم المفوض إليه مقام نفسه في مصالحه، بخلاف التوكل، فإن الوكالة تقتضي أن يقوم الوكيل مقام الموكِّل، والتوكل فوق التفويض وأعلىٰ وأرفع» [«مدارج السالكين» ٢/١٤٥].

ولا بد للعبد أن يعلم أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فيتوكل عليه ويتجه بالدعاء إليه عند كل حاجة تنزل به.

والتوكل يجلب محبة الله تعالىٰ ورضاه ومعونته، ولا يخاف المتوكل فوت شيء قدر له، ولا يخاف كيد الشياطين والأشرار وكل من يكيد ويمكر، ولا يمنع الأخذ بالأسباب المشروعة المباحة، مع عدم خوض في الحرام.

قال الجرجاني: «التوكل هو الثقة بما عند الله، واليأس عما في أيدي الناس» [«التعريفات»/ ٧٤].

وقال ابن رجب الحنبلي: «صدق اعتماد القلب على الله ﷻ في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة، وكلِةُ الأمور كُلِّها إليه وتحقيق الإيمان بأنه لا يُعطي ولا يَمنع ولا يَضُرُّ وَلاَ يَنفَعُ سِواه» [«جامع العلوم والحكم»/ ٤٠٩].

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود]. وقال الله تعالىٰ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الزمل]. وقال الله تعالىٰ: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الشورى]. وقال الله تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود]. وقال الله تعالىٰ على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يوسف]. وقال الله تعالىٰ: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم]. وقال الله تعالىٰ: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ [غافر].

عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا خرج الرجل من بيته فقال: باسم الله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، قال: يُقال حينئذ: هُديت وكفيت ووقيت فتتنحىٰ له الشياطين، فيقول له شيطان آخر: كيف لك برجل قد هُدي وكُفي ووقي**» [رواه أبو داود ٥٠٩٥ واللفظ له، والترمذي ٢٤٢٦، وهو في «صحيح الجامع» ٤٩٩].

(فتتنحىٰ له الشياطين): أي: تتأخر الشياطين عنه.

عن ابن عباس ﷺ قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم ﷺ حين أُلقي في النار، وقالها محمدٌ ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران]» [رواه البخاري - «الفتح» ١٨/٤٥٦٣].

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، واستمع الإذن متىٰ يؤمر بالنفخ فينفخ**» فكأنَّ ذلك ثقل علىٰ أصحاب النبي ﷺ فقال لهم: «**قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا**» [رواه الترمذي ٢٤٣١، وهو في «صحيح الجامع» ٤٥٩٢، و«الصحيحة» ١٠٧٨].

عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رَجُلٌ: يا رسول الله! أعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال: «**اعقلها وتوكل**» [رواه الترمذي ٢٥١٧، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» ٤٨٠٩].

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصًا وتروح بطانًا**» [رواه الترمذي ٢٣٢٤، وابن ماجه ٤١٦٤، وأحمد ٣٠/١، والبيهقي في «الشعب» ١١٣٩، وهو في «السلسلة الصحيحة» ٣١٠].

(تغدو): تذهب أول النهار. (تروح): ترجع آخر النهار.

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من نزلت به فاقةٌ فأنزلها بالناس لم تُسَدَّ فاقته، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل**» [رواه الترمذي ٢٣٢٦، وأبو داود ١٦٤٥، وأحمد ٣٦٩٦].

عن أنس بن مالك ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا غزا قال: «**اللَّهمَّ! أنت عضدي ونصيري، بل أحول وبك أجول وبك أصول، وبك أقاتل**» [«صحيح سنن الترمذي» ٣٥٨٤، وأبو داود ٢٦٣٢].

عن أبي بكر ﷺ قال: قلت للنبي ﷺ وأنا في الغار: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: «**ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما**» [البخاري ـ «الفتح» ٣٦٥٣/٧ واللفظ له، ومسلم ٢٣٨١].

كان موسىٰ عليه السلام يقول: «اللَّهمَّ لك الحمد وإليك المشتكىٰ، وأنت المستعان وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك» [«مجموع الفتاوى» ١١٢/١].

قال سعيد بن جبير رحمه الله: «التوكل على الله عز وجل جماع الإيمان» [«الزهد» لهناد بن السري ٣٠٤/١].

قال شقيق بن سلمة أبو وائل قال: «خرجنا في ليلة مخوفةٍ فمررنا بأجمةٍ فيها رجل نائم، وقيد فرسه فهي ترعىٰ عند رأسه، فأيقظناهُ فقلنا له: تنام في مثل هٰذا المكان؟ قال: فرفع رأسه فقال: إني أستحي من ذي العرش أن يعلم أني أخاف شيئًا دونه، ثم وضع رأسه فنام» [«الزهد» لهناد بن السري ٣٠٦/١ قال محققه: إسناده صحيح].

(الأجمة): الشجر الكثير الملتف.

قال الإمام أحمد رحمه الله: «الاستغناء عن الناس بطلب العمل أعجب إلينا من الجلوس وانتظار ما في أيدي الناس» [«الآداب الشرعية» ٢٧٠/٣].

وقال أيضًا: «صدق المتوكل على الله عز وجل: أن يتوكل على الله ولا يكون في قلبه أحدٌ من الآدميين يطمع أن يجيئهُ بشيء، فإذا كان كذلك كان الله يرزقه وكان متوكلًا» [«الآداب الشرعية» ٢٧٠/٣].

قال ابن القيم رحمه الله: «التوكل من أقوىٰ الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذىٰ الخلق وظلمهم وعداوتهم» [«التفسير القيم» لابن القيم/٥٨٧].

القلب

● أنزه الموجودات وأطهرها، وأنورها وأشرفها وأعلاها ذاتًا وقدرًا وأوسعها: عرش الرحمٰن جلا جلاله ولذلك صلح لاستوائه عليه، وكل ما كان أقرب إلىٰ العرش كان أنور وأنزه وأشرف مما بعد عنه، ولهٰذا كانت جنة الفردوس أعلىٰ الجنان وأشرفها وأنورها وأجلها لقربها من العرش إذ هو سقفها، وكل ما بعد عنه كان أظلم وأضيق، ولهٰذا كان أسفل سافلين شر الأمكنة وأضيقها وأبعدها من كل خير.

وخلق الله القلوب وجعلها محلًّا لمعرفته ومحبته وإرادته فهي عرش المثل الأعلىٰ الذي هو معرفته ومحبته وإرادته.

قال تعالىٰ: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [النحل]. وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم]. وقال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

فهٰذا هو المثل الأعلىٰ، وهو مستوٍ علىٰ قلب المؤمن فهو عرشه، وإن لم يكن أطهر الأشياء وأنزهها وأطيبها وأبعدها من كل دنس وخبث ولم يصلح لاستواء المثل الأعلىٰ عليه معرفةً ومحبةً وإرادةً، فاستوىٰ عليه مثل الدنيا الأسفل ومحبتها وإرادتها والتعلق بها، فضاق وأظلم وبعد من كماله وفلاحه حتىٰ تعود القلوب علىٰ قلبين:

قلبٌ هو عرش الرحمٰن، ففيه النور والحياة والفرح والسرور والبهجة وذخائر الخير، وقلبٌ هو عرش الشيطان، فهناك الضيق والظلمة والموت والحزن والغم والهم، فهو حزين علىٰ ما مضىٰ، مهموم بما يستقبل، مغمومٌ في الحال.

● احذر نفسك فما أصابك بلاءٌ قط إلا منها، ولا تهادنها فوالله ما أكرمها من لم يُهنها، ولا أعزها من لم يذلها، ولا جبرها من لم يكسرها، ولا أراحها من لم يتعبها، ولا أمنها من لم يخوفها، ولا فرحها من لم يحزنها.

● سبحان الله في النفس كبر إبليس، وحسد قابيل، وعتو عاد، وطغيان ثمود، وجرأة نمرود، واستطالة فرعون وبغي قارون، وقحة هامان، وهوىٰ بلعام، وحيل أصحاب السبت، وتمرد الوليد، وجهل أبي جهل.

وفيها من أخلاق البهائم: حرص الغراب، وشره الكلب ورعونة الطاووس، ودناءة الجُعل، وعقوق الضب، وحقد الجمل، ووثوب الفهد، وصولة الأسد، وفسق الفأرة، وخبث الحية، وعبث القرد، وجمع النملة، ومكر الثعلب، وخفة الفراش، ونوم الضبع.

غير أن بالرياضة والمجاهدة يذهب ذلك، فمن استرسل مع طبعه فهو من هٰذا الجند، ولا تصلح سلعته لعقد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ﴾ [التوبة: ١١١].

فما اشترىٰ سبحانه إلا سلعة هذبها الإيمان، فخرجت من طبعها إلىٰ بلد سكانه التائبون العابدون.

● ما ضرب عبدٌ بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله.

● أبعد القلوب من الله القلب القاسي.

● إذا قسي القلب قحطت العين.

● قسوة القلب من أربعة أشياء إذا جاوزت قدر الحاجة: الأكل، والنوم، والكلام، والمخالطة.

● كما أن البدن إذا مرض لم ينفع فيه الطعام والشراب، فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجع فيه المواعظ.

● من أراد صفاء قلبه، فليؤثر الله علىٰ شهوته، والقلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن الله بقدر تعلقها بها.

● إذا غُذي القلب بالتذكر، وسقي بالتفكر، ونقي من الدغل، رأىٰ العجائب، وألهم الحكمة.

- خراب القلب من الأمن والغفلة، وعمارته من الخشية والذكر.
- إذا أحب الله عبدًا اصطنعه لنفسه، واجتباه لمحبته، واستخلصه لعبادته، فشغل همه به، ولسانه بذكره، وجوارحه بخدمته.
- ذخائر الله، وكنوز البر، ولذة الأنس والشوق إليه، والفرح والابتهاج به لا تحصل في قلب فيه غيره، وإن كان من أهل العبادة والزهد والعلم. فإن الله سبحانه أبىٰ أن يجعل ذخائره في قلب فيه سواه، وهمته متعلقة بغيره، وإنما يودع ذخائره في قلب يرىٰ الفقر غنىً مع الله، والغنىٰ فقرًا دون الله، والعز ذلًّا دونه، والذل عزًّا معه، والنعيم عذابًا دونه، والعذاب نعيمًا معه.

وبالجملة: فلا يرىٰ الحياة إلا به ومعه، والموت والألم والهم والغم والحزن إذا لم يكن معه، فهٰذا له جنتان، جنة في الدنيا معجلة، وجنة يوم القيامة.

❊ ❊ ❊

«التعليق»

القلب: مستودع التوحيد والإيمان والإخلاص، وهو محل نظر الرب ﷻ، وهو موضع التمييز والاختبار وهو المخاطب والمقصود بإلزام الحجة.

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦﴾ [الإسراء].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الجوارح كالسواقي توصل إلىٰ القلب الصافي والكدر، فمن كفها عن الشر، جلت معدة القلب بما فيها من الأخلاط، فأذابتها وكفىٰ بذلك حمية، فإذا جاء الدواء صادف محلًّا قابلًا، ومن أطلقها في الذنوب، أوصلت إلىٰ القلب وسخ الخطايا وظلم المعاصي» [«التبصرة» ٢/٢٠٨].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لما كانت هٰذه الأعضاء الثلاثة هي أشرف الأعضاء وملوكها والمتصرفة فيها والحاكمة عليها خصها ﷻ بالذكر في السؤال عنها، فسعادة الإنسان بصحة هٰذه الأعضاء الثلاثة وشقاوته بفسادها» [«مفتاح دار السعادة» ١/١٠٧].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلىٰ أجسامكم ولا إلىٰ صوركم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم**» [رواه مسلم/٢٥٦٤].

وصلاح القلب يستلزم قيام الجوارح بطاعة الله عز وجل.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مُضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**» [انظر: «صحيح الجامع الصغير» ٣١٩٣].

وإن أعظم ما تستأنس به القلوب، وتطمئن به هو ذكر الله تعالىٰ وتلاوة كتابه وسماعه.

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد].

قال الإمام الشوكاني رحمه الله: «تسكن وتستأنس بذكر الله سبحانه بألسنتهم كتلاوة القرآن، والتسبيح، والتحميد والتكبير، والتوحيد، أو بسماع ذلك من غيرهم» [«فتح القدير» ٣/٨١].

وقال البقاعي رحمه الله: «كل قلب يطمئن به، فمن أخبر عن قلبه بخلاف ذلك فهو كاذب معاند، ومن أذعن وعمل بموجب الطمأنينة فهو مؤمن» [«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» ٤/١٤٧].

قال عبد الله بن المبارك رحمه الله: «رُبَّ عمل صغير تكثره النية، ورُبَّ عمل كثير تُصغره النية» [«تهذيب السير» ٢/٧٦٩].

وعن الفضيل بن عياض رحمه الله قال: «خصلتان تقسيان القلب: كثرة الكلام، وكثرة الأكل» [«تهذيب السير» ٢/٧٧٩].

وقال يحيىٰ بن معاذ رحمه الله: «دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتفكر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين» [«صفة الصفوة» ٤/٣٤١].

وعن سعيد بن المسيب رحمه الله قال: «من استغنىٰ بالله افتقر إليه الناس» [«صفة الصفوة» ٢/٤٣٨].

وقال محمد بن واسع رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا أقبل العبد قلبه إلىٰ الله أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه» [«الحلية (تهذيبه)» ١/٤١٠].

وقال محمد بن واسع رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أربع يمتن القلب: الذنب علىٰ الذنب، وكثرة مثافنة النساء وحديثهن، وملاحاة الأحمق تقول له ويقول لك، ومجالسة الموتىٰ، قيل: وما مجالسة الموتىٰ؟ قال: مجالسة كل غني مترف، وسلطان جائر» [«الحلية (تهذيبه)» ١/٤١٤].

❊ ❊ ❊ ❊

الحمد والشكر

● يا مكرَّمًا بحُلةِ الإيمان بعد حُلة العافية، وهو يخلقهما في مخالفة الخالق، لا تنكر السلب، يستحق من استعمل نعمة المنعم فيما يكره أن يسلبها.

(يخلقهما): يبليهما. (يسلبها): لعدم الشكر بالنعمة.

● مصدر ما في العبد من الخير والشر، والصفات الممدوحة والمذمومة من صفة المعطي المانع فهو سبحانه يُصرِّف عباده بين مقتضىٰ هٰذين الاسمين، فحظ العبد الصادق من عبوديته بهما الشكر عند العطاء، والافتقار عند المنع فهو سبحانه يعطيه ليشكره، ويمنعه ليفتقر إليه فلا يزال شكورًا فقيرًا.

● فكرت في هٰذا الأمر، فإذا أصله أن تعلم أن النعم كلها من الله وحده، نعم الطاعات، ونعم اللَّذَّات، فترغب إليه أن يلهمك ذكرها ويوزعك شكرها، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النحل]. وقال: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف]. وقال: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [النحل] وكما أن تلك النعم منه ومن مجرد فضله فذكرها وشكرها لا ينال إلا بتوفيقه.

والذنوب من خذلانه وتخليه عن عبده وتخليته بينه وبين نفسه، وإن لم يكشف ذلك عن عبده فلا سبيل له إلىٰ كشفه عن نفسه، فإذا هو مضطر إلىٰ التضرع والابتهال إليه أن يدفع عنه أسبابها حتىٰ لا تصدر منه، وإذا وقعت بحكم المقادير ومقتضىٰ البشرية فهو مضطر إلىٰ التضرع والدعاء أن يدفع عنه موجباتها وعقوباتها فلا ينفك العبد عن ضرورته إلىٰ هٰذه الأصول الثلاثة، ولا فلاح له إلا بها: الشكر، وطلب العافية، والتوبة النصوح.

ثم فكرت فإذا مدار ذلك علىٰ الرغبة والرهبة، وليسا بيد العبد بل بيد مقلب

القلوب ومصرفها كيف يشاء، فإن وفق عبده أقبل بقلبه إليه وملأه رغبة ورهبة، وإن خذله تركه ونفسه ولم يأخذ بقلبه إليه ولم يسأله ذلك، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

● **النعم ثلاثة**: نعمة حاصلة يعلم بها العبد، ونعمة مستنظرة يرجوها، ونعمة هو فيها لا يشعر بها.

فإذا أراد الله إتمام نعمته علىٰ عبده عرّفه نعمته الحاضرة وأعطاه من شكره قيدًا يقيدها به حتىٰ لا تشرد، فإنها تشرد بالمعصية، وتُقيد بالشكر، ووفقه لعمل يستجلب به النعمة المنتظرة، وبصّره بالطرق التي تسدها وتقطع طريقها ووفقه لاجتنابها، وإذا بها قد وافت إليه علىٰ أتم الوجوه، وعرّفه النعم التي هو فيها ولا يشعر بها.

ويُحكىٰ أن أعرابيًا دخل علىٰ الرشيد فقال: أمير المؤمنين! ثبت الله عليك النعم التي أنت فيها بإدامة شكرها، وحقق لك النعم التي ترجوها بحسن الظن به ودوام طاعته، وعرّفك النعم التي أنت فيها ولا تعرفها لتشكرها. فأعجبه ذلك منه وقال: ما أحسن تقسيمه.

***

«التعليق»

الحمد: يجعل العبد دائمًا مطمئنًا، ويزيد العافية وقوة في العبد وينفي عن العبد اعتراض قدر الله وقضائه ويوصله مقام الرضا ويجلب النعم المفقودة، ويحفظ علىٰ الموجودة، ويورث أعلىٰ مقامات الجنة.

قال الجرجاني: الحمد: هو الثناء علىٰ الجميل من جهة التعظيم من نعمة وغيرها.

وقال ابن القيم: الحمد: إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه.

وقال الراغب: «الحمد لله تعالىٰ: هو الثناء عليه بالفضيلة» [«التعريفات»/٩٣، و«بدائع الفوائد» ٢/٩٣، و«المفردات»/١٣١].

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة]. وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس]. وقال الله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ [الرعد]. وقال الله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم]. وقال الله تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات].

عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ليرضىٰ عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمدهُ عليها، أو يشرب الشربة فيحمدهُ عليها**» [رواه مسلم ٢٧٣٤].

وعن جابر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أهل الجنة يأكلون ويشربون، ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون**، قالوا: فما بال الطعام؟ قال: **جشاءٌ ورشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد كما يُلهمون النفس**» [رواه مسلم ٢٨٣٥].

(الجشاء): نفس المعدة عند الامتلاء.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كلمتان خفيفتان علىٰ اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلىٰ الرحمٰن: سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده**» [البخاري ـ «الفتح» ١١/٦٤٠٦ واللفظ له، ومسلم ٢٦٩٤].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قال لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو علىٰ كل شيء قدير في يوم مئة مرة، كانت له عدل عَشْرِ رقاب، وكتبت له مئة حسنةٍ، ومحيت عنه مئة سيئةٍ،**

وكانت له حِرزًا من الشيطان يومه ذلك حتىٰ يُمسي، ولم يأت أحدٌ بأفضل مما جاء به إلا رجلٌ عمل أكثر منه» [البخاري ٦٤٠٣ واللفظ له، ومسلم ٢٦٩١].

قال عيسىٰ ابن مريم عليه وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسوا قلوبكم، فإن القلب القاسي بعيدٌ من الله ولكن لا تعلمون، ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أربابٌ، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيدٌ فإنما الناس مبتلي ومعافي، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله علىٰ العافية» [«الموطأ» ٩٨٦].

قال أبو العالية الرياحِيُّ رحمه الله تعالىٰ: «إني لأرجو أن لا يهلك عبدٌ بين اثنين نعمةٌ يحمد الله عليها، وذنب يستغفر منه» [«عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» ١٣٠].

كان محارب بن دثار رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقوم الليل ويرفع صوته أحيانًا وهو يقول: «أنا الصغير الذي ربيته فلك الحمد، وأنا الضعيف الذي قويته فلك الحمد، وأنا الفقير الذي أغنيته فلك الحمد، وأنا الصعلوك الذي مولته فلك الحمد، وأنا العزب الذي زوجته فلك الحمد، وأنا السَّاغبُ الذي أشبعته فلك الحمد وأنا العاري الذي كسوته فلك الحمد، وأنا المسافر الذي صحبته فلك الحمد، وأنا الغائب الذي رددته فلك الحمد، وأنا الراجل الذي حملته فلك الحمد، وأنا المريض الذي شفيته فلك الحمد، وأنا السائل الذي أعطيته فلك الحمد، وأنا الداعي الذي أجبته فلك الحمد، ربنا ولك الحمد حمدًا كثيرًا» [«عدة الصابرين»/١٤٦].

قال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالىٰ: «من عرف نعمة الله بقلبه، وحمده بلسانه لم يستتم ذلك حتىٰ يرىٰ الزيادة، لقوله تعالىٰ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]» [«عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» ١٢٣].

الشكر: هو اعتراف المنعم والنعمة، وسبب من أسباب حفظها، ولا يكون باللسان فقط، بل يكون بعمل الجوارح والأركان، ويورث رضا الرب ومحبته.

قال ابن القيم: «الشكر ظهور أثر نعمة الله علىٰ لسان عبده، ثناءً واعترافًا وعلىٰ قلبه شهودًا ومحبةً، وعلىٰ جوارحه انقيادًا وطاعةً» [«مدارج السالكين» ٢/٢٤٤].

وقيل: «هو الاعتراف بنعمة المنعم علىٰ وجه الخضوع» [«البصائر» ٣/٣٣٩].

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة]. وقال الله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة]. وقال الله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس]. وقال الله تعالىٰ: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء]. وقال الله تعالىٰ: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر].

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أبا هريرة! كن ورعًا تكن أعبد الناس، وكن قنِعًا تكن أشكر الناس، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنًا، وأحسن جوار من جاورك تكن مسلمًا، وأقل الضحك فإن كثرة الضحك يميت القلب**» [رواه ابن ماجه ٤٢١٧، وهو في «صحيح الجامع الصغير» ٧٧١٠، و«السلسلة الصحيحة» ٩٢٧].

عن ابن عباس ﷺ قال: مُطر الناسُ علىٰ عهد النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «**أصبح من الناس شاكرٌ ومنهم كافرٌ**»، قالوا: هٰذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صَدَقَ نوءُ كذا وكذا، قال فنزلت هٰذه الآية: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة] [رواه مسلم ٧٣، وهو في الصحيحين من حديث زيد الجهني].

عن ابن عباس ﷺ قال: سجد النبي ﷺ في (ص) وقال: «**سجدها داود توبة ونسجدها شكرًا**» [النسائي ١٥٩/٢، وصححه الألباني ٩١٧].

قال بعض أهل العلم: «من أعطي أربعًا لم يمنع أربعًا: من أعطي الشكر لم يمنع المزيد، ومن أعطي التوبة لم يمنع القبول، ومن أعطي الاستخارة لم يمنع الخيرة ومن أعطي المشورة لم يمنع الصواب» [«إحياء علوم الدين» ١٦٠/١].

قال الحافظ في «الفتح» [٥٨٣/٩]: «اختلف الناس في أيهما أفضل: الفقير الصابر أم الغني الشاكر، والتحقيق عند أهل الحِذق أن لا تجاب في ذلك بجواب كلي، بل يختلف الحال باختلاف الأشخاص والأحوال».

التواضع وعدم الكبر والعجب

● طوبىٰ لمن أنصف ربه، فأقر له بالجهل في علمه، والآفات في عمله، والعيوب في نفسه والتفريط في حقه، والظلم في معاملته. فإن أخذه بذنوبه رأىٰ عدله، وإن لم يؤاخذه بها رأىٰ فضله، وإن عمل حسنة رآها من منته وصدقته عليه، فإن قبلها فمنَّة وصدقة ثانية، وإن ردها فلكون مثلها لا يصلح أن يواجه به، وإن عمل سيئة رآها من تخليه عنه وخذلانه له، وإمساك عصمته عنه، وذلك من عدله فيه، فيرىٰ في ذلك فقره إلىٰ ربه، وظلمه في نفسه، فإن غفرها له فبمحض إحسانه وجوده وكرمه.

ونكتة المسألة وسرها: أنه لا يرىٰ ربه إلا محسنًا، ولا يرىٰ نفسه إلا مسيئًا أو مفرطًا أو مقصرًا، فيرىٰ كل ما يسره من فضل ربه عليه وإحسانه إليه، وكل ما يسوؤه من ذنوبه وعدل الله فيه.

● لله ملك السماوات والأرض، واستقرض منك حبة فبخلت بها، وخلق سبعة أبحر، وأحب منك دمعة فقحطت عينك بها.

● أصل الأخلاق المذمومة كلها: الكبر والمهانة والدناءة. وأصل الأخلاق المحمودة كلها: الخشوع وعلو الهمة. فالفخر والبطر والأشر، والعجب والحسد والبغي، والخيلاء والظلم والقسوة والتجبر، والإعراض وإباء قبول النصيحة والاستئثار وطلب العلو، وحب الجاه والرئاسة، وأن يُحمد بما لم يفعل، وأمثال ذلك. . . كلها ناشئة من الكبر.

وأما الكذب والخسة والخيانة، والرياء والمكر والخديعة، والطمع، والفزع، والجبن، والبخل، والعجز، والكسل، والذل لغير الله، واستبدال الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير، ونحو ذلك فإنها من المهانة والدناءة وصغر النفس.

وأما الأخلاق الفاضلة: كالصبر، والشجاعة، والعدل، والمروءة والعفة، والصيانة، والجود، والحلم والعفو، والصفح والاحتمال والإيثار، وعزة النفس عن الدناءات، والتواضع، والقناعة، والصدق والإخلاص، والمكافأة علىٰ الإحسان بمثله أو أفضل، والتغافل عن زلات الناس، وترك الاشتغال بما لا يعنيه، وسلامة القلب من تلك الأخلاق المذمومة. . . ونحو ذلك، فكلها ناشئة عن الخشوع وعلو الهمة.

● من علامات السعادة والفلاح:

أن العبد كلما زيد في علمه زيد في تواضعه ورحمته.

وكلما زيد في عمله زيد في خوفه وحذره.

وكلما زيد في عمره نقص من حرصه.

وكلما زيد في ماله زيد في سخائه وبذله.

وكلما زيد في قدره وجاهه زيد في قربه من الناس وقضاء حوائجهم والتواضع لهم.

ومن علامات الشقاوة:

أنه كلما زيد في علمه زيد في كبره وتيهه.

وكلما زيد في عمله زيد في فخره واحتقاره للناس، وحسن ظنه بنفسه.

وكلما زيد في عمره زيد في حرصه.

وكلما زيد في ماله زيد في بخله وإمساكه.

وكلما زيد في قدره وجاهه زيد في كبره وتيهه.

وهٰذه الأمور ابتلاء من الله سبحانه وامتحان، يبتلي بها عباده فيُسعد بها أقوامًا ويشقي بها أقوامًا.

● وكذلك الكرامات امتحان وابتلاء، كالمُلك والسلطان والمال قال تعالىٰ عن نبيه سليمان لما رأىٰ عرش بلقيس عنده: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾ [النمل: ٤٠].

فالنعم ابتلاء من الله وامتحان يظهر بها شكر الشكور، وكفر الكفور، كما أن المحن بلوىٰ منه سبحانه، فهو يبتلي بالنعم كما يبتلي بالمصائب.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا . . .﴾ [الفجر].

أي: ليس كل من وسعتُ عليه وأكرمته ونعمته يكون ذلك إكرامًا مني له، ولا كل من ضيقت عليه رزقه وابتليته يكون ذلك إهانة مني له.

❋ ❋ ❋

«التعليق»

التواضع: هو السبيل إلىٰ القرب من الله ومن ثم القرب من الناس والعبد المتواضع يسعد في الدنيا والآخرة، وهو خلق كريم وعظيم، يحب الله المتواضعين ويرعاهم ويحفظهم، وهم آمنون من العذاب يوم الآخرة.

قيل التواضع هو: إظهار التنزل عن المرتبة لمن يُراد تعظيمه.

وقيل: هو تعظيم من فوقه لفضله.

وفي «الرسالة القشيرية»: «التواضع هو الاستسلام للحق وترك الاعتراض في الحكم» [انظر: «مدارج السالكين» ٦/١٣٤، و«فتح الباري» ١١/٣٤١، و«دليل الفالحين» ٣/٥٠].

عن أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ: «**ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عزًّا، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله**» [رواه مسلم ٢٥٨٨].

عن أبي هريرة ﷺ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**رُبَّ أشعث مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره**» [رواه مسلم ٢٦٢٢].

(أشعث): الملبد الشعر المغبر. (مدفوع بالأبواب): لا قدر له عند الناس.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: أحبوا المساكين فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «**اللَّهمَّ! أحيني مسكينًا وأمتني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة**» [رواه الترمذي ٢٤٧١، وحسنه الألباني ١٩١٧، وابن ماجه ٤١٢٦، وهو في «الصحيحة» ٣٠٨].

عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**ما بعث الله نبيًّا إلا رعىٰ الغنم**»، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «**نعم كنت أرعاها علىٰ قراريط لأهل مكة**» [البخاري ـ «الفتح» ٤/٢٢٦٢].

عن البراء بن عازب ﷺ قال: كان النبي ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتىٰ اغبر بطنه يقول:

واللَّه لولا اللَّه ما اهتدينا	**ولا تصدقنا ولا صلينا**
فانزلنْ سكينة علينا	**وثبت الأقدام إن لاقينا**
إن الألىٰ قد بغوا علينا	**إذا أرادوا فتنة أبينا**

ويرفع بها صوته: «**أبينا أبينا**» [البخاري ـ «الفتح» ٧/٤١٠٤، ومسلم ١٨٠٣].

وعن أنس ﷺ قال: كانت ناقةٌ لرسول الله ﷺ تُسمىٰ العضباء، وكانت لا تُسبق، فجاء أعرابيٌّ علىٰ قعود له فسبقها، فاشتدَّ ذلك علىٰ المسلمين، وقالوا: سُبقت العضباء، فقال رسول الله ﷺ: «**إن حقًّا على الله أن لا يرفع شيئًا من الدنيا إلا وضعه**» [رواه البخاري ـ «الفتح» ١١/٦٥٠١].

قال ابن حجر تعليقًا علىٰ هٰذا الحديث: فيه إشارةٌ إلىٰ عدم التَّرفع، والحث علىٰ التواضع، والإعلام بأن أمور الدنيا ناقصة غير كاملة.

قال ابن بطال: فيه هوان الدنيا على الله، والتنبيه علىٰ ترك المباهاة والمفاخرة، وأن كل شيء هان على الله فهو في محل الضَّعَةِ، فحقٌّ علىٰ كل ذي عقل أن يزهد فيه، ويُقلل منافسته في طلبه.

وقال ابن حجر: «فيه أيضًا حسن خلق النبي ﷺ وتواضعه لكونه رضي أن أعرابيًا يُسابقه» [انظر في هٰذه التعليقات: «فتح الباري» ١١/٣٤٩].

قال المسيح عليه السلام: «طوبىٰ للمتواضعين في الدنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة، طوبىٰ للمصلحين بين الناس هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة» [«إحياء علوم الدين» ٣/٣٤١].

قال أبو بكر الصديق ﷺ: «وجدنا الكرم في التقوىٰ، والغنىٰ في اليقين والشرف في التواضع» [«إحياء علوم الدين» ٣/٣٤٣].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «تغفلون أفضل العبادة: التواضع» [وكيع في «الزهد» ٢/٤٦٣].

وسئل الفضيل بن عياض رحمه الله عن التواضع؟ فقال: «يخضع للحق، وينقاد له ويقبله ممن قاله ولو سمعه من صبي قبله، ولو سمعه من أجهل الناس قبله» [«مدارج السالكين» ٢/٣٤٢].

قال عروة بن الورد: «التواضع أحد مصايد الشرف، وكل نعمة محسودٌ عليها صاحبها إلا التواضع» [«إحياء علوم الدين» ٣/٣٤٣].

قال كعب: «ما أنعم الله علىٰ عبدٍ من نعمةٍ في الدنيا شكرها لله وتواضع بها لله؛ إلا أعطاهُ اللَّهُ نفعها في الدنيا، ورفع بها درجة في الآخرة» [«إحياء علوم الدين» ٣/٣٤٣].

أما الكبر والعجب: فالعجب يؤدي إلىٰ الكبر وهو طريق موصل إلىٰ غضب الله وسخطه، والمتكبرون يصرفهم الله عن آياته وطاعته، ويورث هلاك النفس، وذهاب البركة في العمر، وطرد من رحمة الله والمعجب بنفسه ورأيه يحرم من رضوان الله وفضله.

قال الكفوي: التكبر هو أن يرىٰ المرء نفسه أكثر من غيره، والاستكبار طلب ذلك التشبع وهو التزين بأكثر مما عنده» [«الكليات»/ ٢٨].

قال الغزالي: «علة العجب الجهل المحض» [«إحياء علوم الدين» ٣/٣٧١].

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة]. قال الله تعالىٰ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف]. وقال الله تعالىٰ: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف]. وقال الله تعالىٰ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ

أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص].

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثةٌ لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذابٌ أليمٌ: شيخ زانٍ، وملكٌ كذَّاب، وعائل مستكبر**» [رواه مسلم ١٠٧].

عن ثوبان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من مات وهو بريءٌ من الكبر والغلول والدين دخل الجنة**» [أخرجه أحمد ٢٧٦/٥، والترمذي ١٥٧٢ واللفظ له].

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله سبحانه: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، من نازعني واحدًا منهما ألقيته في جهنم**» [رواه مسلم ٢٦٢٠، وابن ماجه ٤١٧٤ واللفظ له].

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**بينما رجلٌ يمشي في حُلةٍ تُعجبه نفسه، مرجل جُمته إذ خسف الله به، فهو يتجلجل إلىٰ يوم القيامة**» [رواه البخاري ـ «الفتح» ٥٧٨٩].

(الجمة): هي مجتمع الشعر إذا تدلىٰ من الرأس. التجلجل: هو أن يسوخ في الأرض مع اضطراب شديد.

قال المسيح عليه الصلاة والسلام: «إن الزرع يَنْبُتُ في السَّهل ولا ينبتُ علىٰ الصفا، كذلك الحكمة تعملُ في قلب المتواضع، ولا تعمل في قلب المتكبر، ألا ترون أن من شمخ برأسه إلىٰ السقف شجَّهُ، ومن طأطأ أظله وأكنه» [«إحياء علوم الدين» ٢٣٦٤/٣].

قال الأحنف بن قيس: «عجبًا لابن آدم يتكبر، وقد خرج من مجرىٰ البول مرتين» [«إحياء علوم الدين» ٣٥٨/٣].

وقال الحسن رحمه الله: «السجود يذهب بالكبر، والتوحيد يذهب بالرياء» [«التواضع» لابن أبي الدنيا/٢٠].

قال ابن القيم رحمه الله: «أركان الكفر أربعة: الكبر، والحسد، والغضب، والشهوة» [«الفوائد»/٢٠٦].

عن عبد الله بن هُبيرة أن سلمان سئل عن السيئة التي لا تنفع معها حسنةٌ؟ قال: «الكبر» [«التواضع» لابن أبي الدنيا/٣١].

محبة اللَّه والأنس به والشوق إليه

• ليس العجب من مملوك يتذلل لله ويتعبد له ولا يمل من خدمته مع حاجته وفقره إليه، إنما العجب من مالك يتحبب إلىٰ مملوكه بصنوف إنعامه ويتودد إليه بأنواع إحسانه مع غناه عنه.

كفىٰ بك عزًّا أنك له عبد وكفىٰ بك فخرًا أنه لك ربُّ

• يا بائعًا نفسه بهوىٰ مَن حبُّه ضنًّىٰ، ووصله أذًى، وحسنه إلىٰ فناء لقد بعت أنفس الأشياء بثمن بخس كأنك لم تعرف قدر السلعة ولا خسة الثمن، حتىٰ إذا قدمت يوم التغابن تبين لك الغُبن في عقد التبايع.

لا إلٰه إلا الله سلعة: الله مشتريها، وثمنها الجنة، والدلال الرسول ﷺ، ترضىٰ ببيعها بجزء يسير مما لا يساوي كله جناح بعوضة.

إذا كان شيء لا يساوي جميعه جناح بعوضٍ عند من صرت عبده
ويملك جزء منه كلك ما الذي يكون علىٰ ذي الحال قدرك عنده
وبعت به نفسًا قد استامها بما لديه من الحسنىٰ وقد زال وده

• من أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه، وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة، وأن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيره، وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له، وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلب الأنس بطاعته، وأن تذوق عصرة القلب عند الخوض في غير حديثه والحديث عنه، ثم لا تشتاق إلىٰ انشراح الصدر بذكره ومناجاته، وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره ولا تهرب منه إلىٰ نعيم الإقبال عليه والإنابة إليه.

وأعجب من هٰذا علمك أنك لا بد لك منه، وأنك أحوج شيء إليه وأنت عنه مُعرض، وفيما يبعدك عنه راغب.

● سبحان الله تزينت الجنة للخطاب فجدُّوا في تحصيل المهر، وتعرّف رب العزة إلىٰ المحبين بأسمائه وصفاته فعملوا علىٰ اللقاء وأنت مشغول بالجيف.

لا كان من لسواك منه قلبه ولك اللسان مع الوداد الكاذب

● المحب يهرب إلىٰ العزلة والخلوة بمحبوبه والأنس بذكره، كهرب الحوت إلىٰ الماء، والطفل إلىٰ أمه.

● ليس للعابد مستراح إلا تحت شجرة طوبىٰ، ولا للمحب قرار إلا يوم المزيد.

● اشتغل به في الحياة يكفك ما بعد الموت.

● قد علمت أين المنزل فاحدُ لها تَسر.

● وقدم التقادم بين يدي الملتقىٰ فاستبشر بالرضا عند القدوم: ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

● الجنة ترضىٰ منك بأداء الفرائض، والنار تندفع عنك بترك المعاصي، والمحبة لا تقنع منك إلا ببذل الروح.

● لله ما أحلىٰ زمان تسعىٰ فيه أقدام الطاعة علىٰ أرض الاشتياق.

● إذا استغنىٰ الناس بالدنيا فاستغن أنت بالله، وإذا فرحوا بالدنيا فافرح أنت بالله، وإذا أنسوا بأحبابهم فاجعل أنسك بالله، وإذا تعرفوا إلىٰ ملوكهم وكبرائهم وتقربوا إليهم لينالوا بهم العزة والرفعة؛ فتعرف أنت إلىٰ الله وتودد إليه تنل بذلك غاية العزة والرفعة.

❋ ❋ ❋

«التعليق»

إذا أراد العبد أن يعرف قيمته عند الله فلينظر فيما أقامه الله فيه، ولا ينظر إلىٰ ما أتاه من الدنيا، أو أنعم عليه من الجسد، فقد كان أصحاب رسول الله ﷺ أعظم الأمة فضلًا لما أقامهم الله فيه من صحبة نبيه ونصرة دينه والدعوة إلىٰ الله تعالىٰ.

قال الراغب: «المحبة ميل النفس إلىٰ ما تراه وتظنه خيرًا» [«الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة»/٣٦٣]. وقال الكفوي: «المحبة إفراط الرضا» [«الكليات»/٤٧٨].

قال الله تعالىٰ: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه]. وقال الله تعالىٰ: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران]. وقال الله تعالىٰ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات]. وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف]. وقال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران].

عن عائشة ﵂؛ أن النبي ﷺ بعث رجلًا علىٰ سرية وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «**سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟**» فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمٰن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: «**أخبروه أن الله يحبه**» [البخاري ٧٣٧٥ واللفظ له، ومسلم ٨١٣].

عن عمرو بن الحِمق الخزاعي ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أحبَّ الله عبدًا عسَّله**» قيل: وما عَسَّلَهُ؟ قال: «**يوفق له عملًا صالحًا بين يدي أجله حتىٰ يرضىٰ عنه جيرانه ـ** أو قال: ـ **من حوله**» [«صحيح الترغيب والترهيب» ٣٣٥٨].

عن عمر بن الخطاب ﵁؛ أن رجلًا كان علىٰ عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله وكان يلقب حمارًا، وكان يُضحكُ رسول الله ﷺ وكان النبي ﷺ قد

جلده في الشراب، فأُتي به يومًا فأمر به فجُلد، فقال رجل من القوم: اللّهم العنه ما أكثر ما يؤتىٰ به، فقال النبي ﷺ: «**لا تلعنوه، فوالله ما علمت أنه يُحب الله ورسوله**» [البخاري - «الفتح» ١٢/٦٧٨٠].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ أن رجلًا سأل النبي ﷺ متىٰ الساعة يا رسول الله؟ قال: «**ما أعددت لها؟**» قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله قال: «**أنت مع من أحببت**» [البخاري - «الفتح» ١٠/٦١٧١ واللفظ له، ومسلم ٢٦٣٩].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال: «**إن الله تعالىٰ ليحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه، كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه**» [«صحيح الجامع» ١٨١٤، و«المشكاة» ٥٢٥٠].

وعن عامر بن سعدٍ قال: كان سعد بن أبي وقاص في إبله، فجاءه ابنه عمر، فلما رآه سعدٌ قال: أعوذ بالله من شر هٰذا الراكب، فنزل فقال له: أنزلت في إبلك وغنمك، وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم؟ فضرب سعد في صدره فقال: اسكت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي**» [رواه مسلم ٢٩٦٥].

المراد بالغنىٰ غنىٰ النفس هٰذا هو الغنىٰ المحبوب لقوله ﷺ: «**ولكن الغنىٰ غنىٰ النفس**» وإما الخفي معناه الخامل المنقطع إلىٰ العبادة والاشتغال بأمور نفسه، وفي الحديث حجة لمن يقول: الاعتزال أفضل من الاختلاط.

قال ابن قدامة رحمه الله: «علامة المحبة، كمال الأنس بمنجاة المحبوب وكمال التنعم بالخلوة، وكمال الاستيحاش من كل ما ينقص عليه الخلوة، ومتىٰ غلب الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة غرة عين تدفع جميع الهموم، بل يستغرق الحب والأنس قلبه» [«مختصر منهاج القاصدين»/٣٥١].

وقال بعضهم:

تعصي الإلٰه وأنت تزعم حبه ... هٰذا محال في القياس بديع
لو كان حبك صادقًا لأطعته ... إن المحب لمن يُحب مطيع

[«زاد المعاد» ٤/١٩٤].

فضل العلم وذم علماء السوء والجهل

● من لم يباشر حر الهجير في طلاب المجد لم يَقِل في ظلال الشرف.

● أعلىٰ الهمم في طلب العلم: طلب علم الكتاب والسنة، والفهم عن الله ورسوله نفس المراد، وعلم حدود المنزل.

وأخس همم طلاب العلم: قصر همته علىٰ تتبع شواذ المسائل وما لم ينزل ولا هو واقع، أو كانت همته معرفة الاختلاف وتتبع أقوال الناس، وليس له همة إلىٰ معرفة الصحيح من تلك الأقوال، وقل أن ينتفع واحد من هؤلاء بعلمه.

● علماء السوء جلسوا علىٰ باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلىٰ النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس: هلموا، قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقًّا كانوا أول المستجيبين له، فهم في الصورة أدلاء، وفي الحقيقة قطاع الطرق.

● كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها، فلا بد أن يقول على الله غير الحق في فتواه وحكمه، في خبره وإلزامه، لأن أحكام الرب سبحانه كثيرًا ما تأتي علىٰ خلاف أغراض الناس ولا سيما أهل الرياسة، والذين يتبعون الشهوات فإنهم لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيرًا، فإذا كان العالم والحاكم محبين للرياسة، متبعين للشهوات لم يتم لهما ذلك إلا بدفع ما يضاده من الحق، ولا سيما إذا قامت له شبهة، فتتفق الشبهة والشهوة ويثور الهوىٰ، فيخفىٰ الصواب وينطمس وجه الحق، وإن كان الحق ظاهرًا لا خفاء به ولا شبهة فيه، أقدم علىٰ مخالفته وقال: لي مخرج بالتوبة وفي هؤلاء وأشباههم قال تعالىٰ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ [مريم: ٥٩].

وقال تعالىٰ فيهم أيضًا: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝١٦٩﴾ [الأعراف].

فأخبر سبحانه أنهم أخذوا العرض الأدنىٰ مع علمهم بتحريمه عليهم. وقالوا: سيغفر لنا، وإن عرض لهم عرض آخر أخذوه فهم مصرون علىٰ ذلك، وذلك هو الحامل لهم علىٰ أن يقولوا على الله غير الحق، فيقولون: هٰذا حكمه وشرعه ودينه وهم يعلمون أن دينه وشرعه وحكمه خلاف ذلك، أو لا يعلمون أن ذلك دينه وشرعه وحكمه، فتارة يقولون على الله ما لا يعلمون، وتارة يقولون عليه ما يعلمون بطلانه.

وأما الذين يتقون فيعلمون أن الدار الآخرة خير من الدنيا فلا يحملهم حب الرياسة والشهوة علىٰ أن يؤثروا الدنيا علىٰ الآخرة. وطريق ذلك أن يتمسكوا بالكتاب والسنة، ويستعينوا بالصبر والصلاة، ويتفكروا في الدنيا وزوالها وخستها، والآخرة وإقبالها ودوامها، وهؤلاء لا بد أن يبتدعوا في الدين مع الفجور في العمل فيجتمع لهم الأمران (المذكورون في الآية السابقة).

❊ ❊ ❊

«التعليق»

العلم: يرشد العبد إلىٰ معرفة ربه وخشيته، ويعرف به التوحيد والاعتقاد الصحيح، وينال صاحبه العز والشرف في الدنيا والآخرة، طلبه عبادة، ويبقىٰ ذكره بعد انقطاع أجله، من سلك طريقه يوصله سعادة في الدنيا والفوز بالجنة.

والعلم النافع هو فهم الكتاب والسنة والمأثور عن الصحابة والتابعين.

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٨﴾ [آل عمران].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «استشهد الله عَزَّ وَجَلَّ بأهل العلم علىٰ أجل مشهود به وهو التوحيد، وقرن شهادتهم وشهادة ملائكته، وفي ضمن ذلك تعديلهم فإنه تعالىٰ لا يستشهد بمجروح» [«مدارج السالكين» ٢/٤٧٠].

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص]. وقال الله تعالىٰ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء]. وقال الله تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد].

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**» [رواه مسلم ١٦٣١].

عن ابن عباس ﷺ قال: إن النبي ﷺ دخل الخلاء فوضعت له وضوءًا، قال: «**من وضع هٰذا؟**» فأُخبر، فقال: «**اللَّهمَّ! فقهه في الدين**». وفي لفظ آخر قال: «**ضمني**»، وقال: «**اللَّهمَّ! علمه الكتاب**» [البخاري ـ «الفتح» ١٤٣/١ واللفظ له، ومسلم ١٤٧٧].

عن عثمان بن عفان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**» [البخاري ٥٠٢٧].

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**سلوا الله علمًا نافعًا، وتعوذوا بالله من علم لا ينفع**» [رواه ابن ماجه ٣٨٤٣].

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تعلم علمًا مما يبتغي به وجه الله ﷻ لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة**». [رواه أبو داود ٣٦٦٤ واللفظ له، والترمذي ٢٦٥٥، وأحمد ٨٢٣٨،

و«اقتضاء العلم العمل» للخطيب البغدادي، وقال الألباني: صحيح رقم ١٠٢].

(عرف الجنة): يعني ريحها.

عن حميد بن عبد الرحمٰن قال: سمعت معاوية ﷺ خطيبًا يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي، ولن تزال هٰذه الأمة قائمة علىٰ أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتىٰ يأتي أمر الله**» [البخاري ـ «الفتح» ١/٧١ واللفظ له، ومسلم ١٠٣٧].

قال المسيح عليه السلام: «من تعلم وَعَلِمَ وَعَمِلَ فذاك يُدعىٰ عظيمًا في ملكوت السماء» [«العلم» لزهير بن حرب ٧].

وقال أيضًا عليه السلام: «لا تمنع العلم من أهله فتأثم، ولا تنشره عند غير أهله فتجهل، وكن طبيبًا رفيقًا يضع دواء حيث يعلم أنه ينفع» [الدارمي/٣٧٩].

وقال علي بن أبي طالب لرجل من أصحابه: «يا كميل! العلم خيرٌ من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكمٌ والمال محكوم عليه، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو بالإنفاق» [«إحياء علوم الدين» ١/١٧ ـ ١٨].

قال سلمان ﷺ: «علم لا يقال به، ككنز لا ينفق منه» [«العلم» لزهير بن حرب ١٢].

قال عبد الله بن مسعود: «اغد عالمًا أو متعلمًا ولا تغد بين ذلك» [«العلم» ١]. وقال أيضًا: «يا أيها الناس! تعلموا فمن علم فليعمل» [«العلم» ٤]. وقال أيضًا: «إن من العلم أن يقول الذي لا يعلم: الله أعلم» [«العلم» لزهير بن حرب ٤٩].

قال أبو الدرداء: «إنما أخشىٰ من ربي يوم القيامة أن يدعوني علىٰ رؤوس الخلائق فيقول لي: يا عويمر! فأقول: لبيك ربي، فيقول لي: ما عَمِلتَ فيما عَلِمت» [«شعب الإيمان» للبيهقي ١٧١١].

قال مجاهد بن جبر: «لا يتعلم العلم مستح ولا مستكبر» [«الفتح» ١/٢٢٨].

قال أبو الدرداء ﷺ: «مثل العلماء في الناس كمثل النجوم في السماء يُهتدىٰ بها» [«أخلاق العلماء» للآجري/٤٢].

التفكر والذكر

● للعبد ربٌ هو ملاقيه، وبيت هو ساكنه، فينبغي له أن يسترضي ربه قبل لقائه، ويعمر بيته قبل انتقاله إليه.

● إذا حملت علىٰ القلب هموم الدنيا وأثقالها، وتهاونت بأوراده التي هي قوته وحياته، كنت كالمسافر الذي يُحمل دابته فوق طاقتها، ولا يوفيها علفها، فما أسرع ما تقف به.

ومشتت العزمات ينفق عمره حيران لا ظفر ولا إخفاق

● غرس الخلوة يثمر الأنس.

● استوحش مما لا يدوم معك، واستأنس بمن لا يفارقك.

● عزلة الجاهل فساد، وأما عزلة العالم فمعها حذاؤها وسقاؤها.

● لا بد أن تجذبك الجواذب فاعرفها وكن منها علىٰ حذر، ولا تضرك الشواغل إذا خلوت منها وأنت فيها.

● إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قرنه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٤٥﴾ [الأنفال].
(القرن): مثله في الشجاعة والعلم.

● وإياك أن تُمكّن الشيطان من بيت أفكارك وإرادتك، فإنه يُفسدها عليك فسادًا يصعب تداركه، ويُلقي إليك أنواع الوساوس والأفكار المضرة، ويحول بينك وبين الفكر فيما ينفعك، وأنت الذي أعنته علىٰ نفسك بتمكينه من قلبك وخواطرك فملكها عليك، فمثالك معه مثال صاحب رحًى يطحن فيها جيِّد الحبوب، فأتاه شخص معه حِملُ تراب وبعر وفحم وغثاء ليطحنه في طاحونته، فإن طرده ولم يمكِّنه من إلقاء ما معه في الطاحون، استمر علىٰ

طحن ما ينفعه، وإن مكَّنه إلقاء ذلك في الطاحون أفسد ما فيها من الحَب، وخرج الطحين كله فاسدًا.

والذي يلقيه الشيطان في النفس لا يخرج عن الفكر فيما كان ودخل في الوجود لو كان علىٰ خلاف ذلك، وفيما لم يكن لو كان كيف كان يكون، أو فيما يملك الفكر فيه من أنواع ما طوىٰ عنه علمه فيلقيه في تلك الخواطر التي لا يبلغ منها غاية، ولا يقف منها علىٰ نهاية فيجعل ذلك مجال فكره ومسرح همه.

وجماع إصلاح ذلك: أن تشغل فكرك في باب العلوم والتصورات بمعرفة ما يلزمك من التوحيد وحقوقه، وفي الموت وما بعده إلىٰ دخول الجنة والنار، وفي آفات الأعمال وطرق التحرز منها وفي باب الإرادات والعزوم أن تشغل نفسك بإرادة ما ينفعك إرادته، وطرح إرادة ما يضرك إرادته، وعند العارفين أن تمني الخيانة وإشغال الفكر والقلب بها، أضر علىٰ القلب من نفس الخيانة، ولا سيما إذا فرغ قلبه منها بعد مباشرتها، فإن تمنيها يشغل القلب ويملؤه منها ويجعلها همه ومراده.

وأنت تجد في الشاهد أن الملك من البشر إذا كان في بعض حاشيته وخدمه من هو مُتمَنٍّ لخيانته، مشغول القلب والفكر بها، ممتلئ منها، وهو مع ذلك في خدمته وقضاء أشغاله، فإذا اطلع علىٰ سره، وقصده مقته غاية المقت وأبغضه وقابله بما يستحقه، وكان أبغض إليه من رجل بعيد عنه، جنىٰ بعض الجنايات وقلبه وسره مع الملك غير منطوٍ علىٰ تمنّي الخيانة ومحبتها والحرص عليها، فالأول يتركها عجزًا واشتغالًا بما هو فيه وقلبه ممتلئ بها، والثاني يفعلها وقلبه كارهٌ لها ليس فيه إضمار الخيانة ولا الإصرار عليها، فهٰذا أحسن حالًا وأسلم عاقبة من الأول.

وبالجملة: فالقلب لا يخلو قط من الفكر: إما في واجب آخرته ومصالحها، وإما في مصالح دنياه ومعاشه، وإما في الوساوس والأماني الباطلة والمقدرات المفروضة.

● من اشتغل بالله عن نفسه كفاه الله مؤونة نفسه، ومن اشتغل بالله عن الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن اشتغل بنفسه عن الله وكله الله إلىٰ نفسه، ومن اشتغل بالناس عن الله وكلهم الله إليهم.

«التعليق»

التفكر: يؤدي إلىٰ الاعتبار، ويحيي القلب، ويورث العبد انشراح الصدر والسكينة، ويوصله إلىٰ محبة الله ورضوانه.

قال الجرجاني رحمه الله: «التفكر: تصرف القلب في معاني الأشياء لدرك المطلوب» [«التعريفات»/٦٦].

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران]. وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس]. وقال الله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل]. وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر].

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**اقرأ عليَّ القرآن**» قال: فقلت: يا رسول الله! أقرأ عليك وعليك أُنزل؟ قال: «**إني أشتهي أن أسمعه من غيري**» فقرأت النساء حتىٰ إذا بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء]. «رفعت رأسي ـ أو غمزني رجلٌ إلىٰ جنبي فرفعت رأسي ـ فرأيت دموعه تسيل» [البخاري ـ «الفتح» ٨/٤٥٨٢، ومسلم ٨٠٠ واللفظ له].

رویٰ الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان لقمان يطيل الجلوس وحده، فكان يمُرُّ به مولاه فيقول: يا لقمان! إنك تديم الجلوس وحدك فلو جلست مع الناس كان آنس لك، فيقول لقمان: إن طول الوحدة أفهم للفكر، وطول الفكر دليل علىٰ طريق الجنة» [الإحياء ٤/٤٢٤].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ركعتان مقتصدتان في تفكر خيرٌ من قيام ليلةٍ بلا قلبٍ» [الإحياء ٤/٤٢٥].

وقال أيضًا: «تفكروا في كل شيء، ولا تفكروا في ذات الله» [الدر المنثور ٢/٤٠٩].

عن عبد الله بن عتبة قال: سألت أم الدرداء: ما كان أفضل عبادة أبي الدرداء؟ قالت: «التفكر والاعتبار» [«الزهد» لوكيع/٤٧٤].

عن الحسن قال: «تفكر ساعةٍ خير من قيام ليلةٍ» [«الإحياء» ٤/٤٢٤].

قال أبو سليمان: «الفكر في الدنيا حجابٌ عن الآخرة، والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويُحيي القلوب» [«الإحياء» ٤/٤٢٤].

قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إذا المرءُ كانت له فكرةٌ ... ففي كل شيء له عبرةٌ

[«تفسير ابن كثير» ١/٤٣٨].

أما الذكر: «هو التخلص من الغفلة والنسيان» [«مدارج السالكين» ٢/٤٥١].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو جلاء القلوب وصقالها ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقًا ازداد محبة إلىٰ لقائه واشتياقًا» [«مدارج السالكين» ٢/٤٤٠ ـ ٤٤١].

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران]. وقال الله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء]. وقال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه]. وقال الله

تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل]. وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإنسان]. وقال الله تعالىٰ: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف].

عن جابر بن عبد الله ﷺ يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أفضل الذكر لا إلـٰه إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله**» [رواه الترمذي ٣٣٨٣، وحسنه الألباني ٢٦٩٤، وابن ماجه ٣٨٠٠، والحاكم ٤٩٨/١، و«الموطأ» ١٨٥/١].

عن أبي الدرداء ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من انفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟**» قالوا: بلىٰ، قال: «**ذكر الله تعالىٰ**» فقال معاذ بن جبل ﷺ: «ما شيءٌ أنجىٰ من عذاب الله من ذكر الله» [رواه الترمذي ٣٣٧٧، والحاكم ٤٩٦/١، وهو في «صحيح الجامع الصغير» ٢٦٢٩].

عن عبد الله بن بُسْر ﷺ؛ أن رجلًا قال: يا رسول الله! إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ فأخبرني بشيء أتشبث به، قال: «**لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله**» [رواه الترمذي ٣٣٧٥ واللفظ له، وهو في «صحيح الجامع الصغير» ٧٧٠٠].

عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**ثلاثةٌ لا يرد الله دعاءهم: الذاكر الله كثيرًا، ودعوة المظلوم، والإمام العادل**» [البيهقي في «الشعب» ٦٩٧٣، و«السلسلة الصحيحة» ١٢١١].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ يذكر الله علىٰ كل أحيانه» [مسلم ٣٧٣].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صلىٰ عليَّ واحدة صلىٰ الله عليه عشرًا**» [مسلم ٤٠٨].

قال أبو بكر رضي الله عنه: «ذهب الذاكرون الله بالخير كله» [«شعب الإيمان» ٥٥٤].

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «إن لكل شيء جلاءً، وإن جلاء القلوب ذكر الله عز وجل» [«شعب الإيمان» ٥٢٠، و«الوابل الصيب» ٦٠].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]. إن الله تعالىٰ لم يفرض علىٰ عباده فريضة إلا جعل لها حدًّا معلومًا ثم عذر أهلها في حال العذر، غير الذكر فإن الله تعالىٰ لم يجعل له حدًّا ينتهي إليه، ولم يعذر أحدًا في تركه إلا مغلوبًا علىٰ تركه فقال: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣] بالليل والنهار في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنىٰ والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية وعلىٰ كل حال» [تفسير ابن كثير ٥٠٣/٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «الذكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء» [«الوابل الصيب»/٦٣].

قال ابن القيم رحمه الله: «محبة الله تعالىٰ ومعرفته ودوام ذكره والسكون إليه والطمأنينة إليه، وإفراده بالحب والخوف والرجاء والتوكل والمعاملة بحيث يكون هو وحده المستولي علىٰ هموم العبد وعزماته وإرادته، هو جنة الدنيا والنعيم الذي لا يشبهه نعيم، وهو قرة عين المحبين وحياة العارفين» [«الوابل الصيب»/ ٧٠].

وقال أيضًا: «وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان وكان من الأذكار النبوية وشهد الذكر معانيه ومقاصده» [«الوابل الصيب»/ ٢٦٠].

❀ ❀ ❀ ❀

فضل الزهد

● الزهد أقسام:

أ ـ زهد في الحرام: وهو فرض عين.

ب ـ وزهد في الشبهات، وهو بحسب مراتب الشبهة: فإن قويت التحقت بالواجب، وإن ضعفت كان مستحبًا.

جـ ـ وزهد في الفضول.

د ـ وزهد فيما لا يعني من الكلام والنظر والسؤال واللقاء وغيره.

هـ ـ وزهد في الناس.

و ـ وزهد في النفس، بحيث تهون عليه نفسه في الله.

ز ـ وزهد جامع لذلك كله؛ وهو الزهد فيما سوىٰ الله وفي كل ما شغلك عنه.

ح ـ وأفضل الزهد: إخفاء الزهد.

ط ـ وأصعبه: الزهد في الحظوظ.

ـ والفرق بينه وبين الورع:

أن الزهد: ترك ما لا ينفع في الآخرة.

والورع: ترك ما يخشىٰ ضرره في الآخرة.

● القلب المعلق بالشهوات لا يصح له زهد ولا ورع.

● سُئل سهل التستري: الرجل يأكل في اليوم أكلة؟! قال: أكل الصديقين. وقيل له: فأكلتين؟! قال: أكل المؤمنين. قيل له: فثلاث أكلات؟! فقال: قل لأهله يبنوا له معلفًا.

● كل ذي لب يعلم أنه لا طريق للشيطان عليه من ثلاث جهات:

أحدها: التزيد والإسراف، فيزيد على قدر الحاجة فتصير فضلة، وهي حظ الشيطان، ومدخله إلى القلب.

وطريق الخلاص منه: الاحتراز من إعطاء النفس تمام مطلوبها من غذاء أو نوم أو لذة أو راحة، فمتى أغلقت هذا الباب حصل الأمان من دخول العدو منه.

الثانية: الغفلة: فإن الذاكر في حصن الذكر، فمتى غفل فتح باب الحصن فولجه العدو، فيعسر عليه أو يصعب إخراجه.

الثالثة: تكلف ما لا يعنيه من جميع الأشياء.

❋ ❋ ❋

«التعليق»

الزهد: هو تمام التوكل على الله تعالى والتأسي برسول الله ﷺ وصحابته الكرام، يورث الراحة والاطمئنان في الدنيا، والرضا بما قسم الله لك والقناعة به وترك الملذات الفانية من أجل سعادة النعيم المقيم في الآخرة.

قال الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قيل هو بُغض الدنيا والإعراض عنها، وقيل هو ترك راحة الدنيا طلبًا لراحة الآخرة، وقيل هو أن يخلو قلبك مما خلت منه يدك» [«التعريفات»/١٠٥].

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الزهد عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خيرٌ منه» [«مختصر منهاج القاصدين» ٣٢٤].

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يوسف]. وقال الله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه]. وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص]. وقال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا

فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص]. وقال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى].
وقال الله تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد].

عن ابن مسعودٍ ﷺ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنها تزهد في الدنيا، وتذكر الآخرة**» [رواه ابن ماجه ١٥٧١، وأصله عند مسلم ٩٧٦، وفي «صحيح الجامع» ٤٥٨٤].

عن سهل بن سعد السَّاعدي ﷺ قال: أتىٰ النبيَّ ﷺ رجلٌ فقال: يا رسول الله! دُلني علىٰ عملٍ إذا أنا عملته أحبني الله وأحبني الناس، فقال رسول الله ﷺ: «**ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يُحبُّوك**» [ابن ماجه ٤١٠٢، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» برقم ٣٣١٠].

عن عبد الله بن الشخير ﷺ قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾﴾ [التكاثر] قال: «**يقول ابن آدم: مالي، مالي**»، قال: «**وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت**» [رواه مسلم ٢٩٥٨].

عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل**» [البخاري ـ الفتح ١١/٦٤٨٩، ومسلم ٢٢٥٦ واللفظ له].

عن جابر بن عبد الله ﷺ؛ أن رسول الله ﷺ مَرَّ بالسوق داخلًا من بعض العالية، والناس كنفته، فمر بجدي أسكَّ مَيِّتٍ، فتناوله فأخذ بأذنه، ثم قال: «**أيكم يحب أن هٰذا له بدرهم؟**» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به؟ قال: «**أتحبون أنه لكم**» قالوا: والله لو كان حَيًّا كان عيبًا فيه، لأنه أَسكٌّ، فكيف وهو مَيتٌ؟ فقال: «**فوالله للدنيا أهون على الله من هٰذا عليكم**» [رواه مسلم٢٩٥٧].

(كنفته وكنفتيه): يعني جانبه وجانبيه. (جدي أسك): صغير الأذنين.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «**كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابرُ سبيلٍ**» وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك» [البخاري ـ «الفتح» ١١/٦٤١٦].

قال العلماء في شرح هٰذا الحديث: معناه لا تركن إلىٰ الدنيا ولا تتخذها وطنًا، ولا تحدث نفسك بطول البقاء فيها، ولا بالاعتناء بها، ولا تتعلق منها بما لا يتعلق به الغريب في غير وطنه، ولا تشتغل فيها بما لا يشتغل به الغريب الذي يريد الذهاب إلىٰ أهله ـ وبالله التوفيق.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**ليس الغنىٰ عن كثرة العرض، ولكن الغنىٰ غنىٰ النفس**» [البخاري ـ «الفتح» ١١/٦٤٤٦، ومسلم ١٠٥١ واللفظ له].

عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقىٰ كافرًا منها شربة ماء**» [الترمذي ٢٣٢٠ واللفظ له، وابن ماجه ٤١١٠، وهو في «السلسلة الصحيحة» ٩٤٠].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «توفي رسول الله ﷺ وما في رفي من شيء يأكله ذو كبدٍ إلا شطر شعيرٍ في رفٍّ لي، فأكلتُ منه حتىٰ طال عليَّ، فكلته ففني» [البخاري ـ «الفتح» ١١/٦٤٥١، ومسلم ٢٩٧٣ واللفظ له].

(شطر شعير): معناه شيء من شعير، وقيل: نصف وسق. (رف): شبه طاقة.

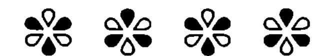
قال ابن مسعود رضي الله عنه: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا علم له» [«المنهاج في شعب الإيمان» ٣/٣٨٨].

عن موسىٰ بن عُتبة قال: كتب أبو الدرداء إلىٰ بعض إخوانه، أما بعد: فإني أوصيك بتقوىٰ الله، والزهد في الدنيا، والرغبة فيما عند الله، فإنك إذا فعلت ذلك أحبك الله لرغبتك فيما عنده، وأحبك الناس لتركك لهم دنياهم والسلام» [«شعب الإيمان» ٧/٣٨١].

عن محمد بن كعب القرظي قال: «إذا أراد الله بعبد خيرًا أزهده في الدنيا وفقهه في الدين، وبصره عيوبه، ومن أوتيهنَّ فقد أوتي خيرًا كثيرًا في الدنيا والآخرة» [«المنهاج في شعب الإيمان» للحليمي ٣/٣٨٩].

عن عروة بن الزبير ﷺ قال: «ما كانت عائشة أم المؤمنين تستجد ثوبًا حتىٰ ترقع ثوبها وتنكسه»، قال: ولقد جاءها يومًا من عند معاوية ثمانون ألفًا، فما أمسىٰ عندها درهمٌ، قالت لها جاريتها: فهلا اشتريت لنا منه لحمًا بدرهم؟ قالت: «لو ذكرتيني لفعلت» [الترمذي ١٧٨١، «الزهد» لوكيع ٣٣٧/١ وله شواهد في «الصحيحين»].

قال ابن الجلاء: الزهد هو النظر إلىٰ الدنيا بعين الزوال لتصغر في عينيك فيسهل عليك الإعراض عنها» [بصائر ذوي التمييز ١٣٩/٣].



فضل الحلم والعفو والغفران

- إذا خرجَتْ من عدوك لفظة سفه، فلا تلحقها بمثلها تلقحها، ونسل الخصام نسل مذموم.
- حميتك لنفسك أثر الجهل بها، فلو عرفتها حق معرفتها، أعنت الخصم عليها.
- إذا اقتدحت نار الانتقام من نار الغضب، ابتدأت بإحراق القادح.
- أوثق غضبك بسلسلة الحِلم، فإن كلب إن أفلت أتلف.

❋ ❋ ❋

«التعليق»

الحلم: صفة من صفات الله ﷻ، ومن صفات أوليائه الأتقياء، ويدل علىٰ كمال العقل وسعة الصدر، وقليل من الخلق من يتصف به، وقد يكسبه المرء بالتحلم والاجتهاد والرغبة فيما عند الله وما أعده من الثواب الجزيل، ويورث العبد محبة الله ورضوانه، والفوز بالدرجات العلىٰ في الجنة.

قال ابن منظور في معناه: والحليم في صفة الله ﷻ، معناه: الصبور، وقيل: هو الذي لا يستخفه عصيان العصاة، ولا يستفزه الغضب عليهم، ولكنه جعل لكل شيء مقدارًا فهو منتهٍ إليه» [«لسان العرب»/ ٩٨٠].

وقيل حلم الله: «هو تأخير العقوبة عن بعض المستحقين، ثم قد يعذبهم وقد يتجاوز عنهم، وقد يعجلُ العقوبة لبعضهم» [«موسوعة له الأسماء الحسنىٰ» ١/١٨٢].

وقال الزجاجي: يقال: حلم فلانٌ عن فلانٍ إذا لم يقابله علىٰ إساءته ولم

يجازه عليها، فالله ﷻ حليم عن عباده، لأنه يعفو عن كثير من سيئاتهم ويمهلهم بعد المعصية ولا يعاجلهم بالعقوبة والانتقام ويقبل توبتهم بعد ذلك»
[«اشتقاق أسماء الله»/٩٦]

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ [آل عمران]. وقال الله تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر]. وقال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [المائدة]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾ [يونس]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ [الكهف]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر].

عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ كان النبي ﷺ يدعو عند الكرب يقول: «**لا إلٰه إلا الله العظيم الحليم، لا إلٰه إلا الله رب السماوات والأرض ورب العرش العظيم**»
[البخاري ٦٣٤٥، ومسلم ٢٧٣٠].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: إن رجلًا قال: يا رسول الله! إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليَّ، فقال: «**لئن كنت كما قلت، فكأنما تُسفهم الملَّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت علىٰ ذلك**» [مسلم ٢٥٥٨].

(الملّ): الرماد الحار. (الظهير): المعين والدافع.

عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس الشديد بالصُّرعةِ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**» [البخاري ٦١١٤ واللفظ له، ومسلم ٢٠٦٩].

عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: إن رجلًا قال للنبي ﷺ أوصني، قال: «**لا تغضب**» فردد مرارًا قال: «**لا تغضب**» [البخاري ٦١١٦].

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: كأني أنظر إلىٰ النبي ﷺ يحكي: نبيًا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه، فهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «**رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**» [البخاري ٦٩٢٩، ومسلم ١٧٩٢].

وعن أنس بن مالك ﷺ أنه قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُرْدٌ نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذةً شديدة، حتىٰ نظرتُ إلىٰ صفحةِ عاتق رسول الله ﷺ وقد أثرت بها حاشية البُرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد! مُر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك ثم أمر له بعطاء» [البخاري ٥٨٠٩، ومسلم ١٠٥٧].

قال لقمان الحكيم: «ثلاثةٌ لا يعرفون إلا عند ثلاثةٍ: لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا الأخ إلا عند الحاجة إليه» [الإحياء ٣/١٧٩].

قال علي بن أبي طالب ﷺ: «ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك، وأن لا تُباهي الناس بعبادة الله، وإذا أحسنت حمدت الله تعالىٰ، وإذا أسأت استغفرت الله تعالىٰ» [الإحياء ٣/١٧٨].

قال معاوية بن أبي سفيان ﷺ: «لا يبلغ العبد مبلغ الرأي حتىٰ يغلب حلمه جهله، وصبره شهوته، ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم» [الإحياء ٣/١٧٨].

وسأل أيضًا عمرو بن الأهتم: أيُّ الرجال أشجع؟ قال: من رَدَّ جهله بحلمه، قال: فأيُّ الرجال أَسْخَىٰ؟ قال: من بَذَلَ دُنياهُ لصالح دينه» [«الإحياء» ٣/١٧٨].

قال الحسن البصري رحمه الله في تفسير قوله تعالىٰ: «﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان] حلماء إن جُهل عليهم لم يجهلوا» [«الإحياء» ٣/١٨٦].

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «خمسٌ إذا أخطأ القاضي منهنَّ خُطَّةً كانت فيه وصْمَةٌ: أن يكون فَهِمًا حليمًا عفيفًا صليبًا عالمًا سؤولًا عن العلم» [البخاري - «الفتح» ١٣/١٥٦].

(خُطة): أي خصلة. (الوصمة): العيب. (فهمًا): صيغة مبالغة عن الفهم. (عفيفًا): أي يعف عن الحرام. (صليبًا): من الصلابة أي قويًا شديدًا يقف عند الحق ولا يميل مع الهوىٰ.

أما العفو والغفران: هما من صفات الله تعالىٰ وهو التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه، ودليل علىٰ كمال النفس وشرفها، ويدلان علىٰ جميل خلق العبد، وسعة الصدر وحسن الظن، وكلاهما يثمر محبة الله عَزَّ وَجَلَّ ثم محبة الناس.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن حكمة الله عَزَّ وَجَلَّ تعريفه عبده أنه لا سبيل له إلىٰ النجاة إلا بعفوه ومغفرته جل وعلا، وأنه رهينٌ بحقه، فإن لم يتغمده بعفوه ومغفرته، وإلا فهو من الهالكين لا محالة فليس أحدٌ من خلقه إلا وهو محتاج إلىٰ عفوه ومغفرته كما هو محتاج إلىٰ فضله ورحمته» [«مفتاح دار السعادة» ١/٣١٣].

والغفران: «هو تغطية الذنب بالعفو عنه» [انظر: «موسوعة له الأسماء الحسنى» للشرباصي ٢/٢٦٣].

قال الله تعالىٰ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف]. وقال الله تعالىٰ: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ [البقرة]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة].

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قالت أم حبيبة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «اللَّهم! متعني بزوجي رسول الله ﷺ وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية، فقال لها رسول الله ﷺ: **«إنك سألت الله لآجال مضروبة، وآثار موطوءة، وأرزاق مقسومة، لا يُعجِّلُ منها شيئًا قبل حله، ولا يؤخر منها شيئًا بعد حله، ولو سألت الله أن يعافيك من عذاب في النار، وعذاب في القبر لكان خيرًا لك»** [مسلم ٢٦٦٣].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تجاوز لي عن أمتي ما وسوست به صدورها ما لم تعمل أو تكلم**» [البخاري ٢٥٢٩ واللفظ له، ومسلم ١٢٧].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله! أرأيت إن علمتُ أي ليلة ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: قال: «**قولي: اللَّهمَّ! إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني**» [الترمذي ٣٥١٣ واللفظ له، والحاكم ١/٥٣٠، وهو في «السلسلة الصحيحة» ٢٨٧٥].

عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: «بلغنا أن الله تعالىٰ يأمر مناديًا يوم القيامة فينادي: من كان له عند الله شيء فليقم، فيقوم أهل العفو فيكافئهم الله بما كان من عفوهم عن الناس» [«الإحياء» ٣/١٩٥].

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «كل الناس مني في حِلٍّ» [«الآداب الشرعية» ١/٧١].

عن معاوية بن سُويد رضي الله عنه قال: «لطمت مولىً لنا فهربْتُ، ثم جئت قبيل الظهر فصليت خلف أبي، فدعاه ودعاني ثم قال: امتثل منه فعفا» [رواه مسلم ١٦٥٨].

(امتثل منه): افعل به مثل ما فعل بك.

دخل رجل علىٰ عمر بن عبد العزيز رحمه الله فجعل يشكو إليه رجلًا ظلمه ويقع فيه، فقال له عمر: «إنك أن تلقىٰ الله ومظلمتك كما هي، خيرٌ لك من أن تلقاه وقد اقتصصتها» [الإحياء ٣/١٨٣].

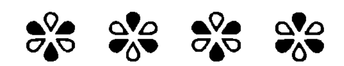
قال الشافعي رحمه الله:

«قالوا سكت وقد خوصمت قلت لهم ... إن الجواب لباب شر مفتاح

فالعفو عن جاهل أو أحمق أدبٌ ... نعم وفيه لصوق العرض إصلاح

إن الأسود لتخشىٰ وهي صامتة ... والكلب يُحثىٰ ويرمىٰ وهو نباح»

[«الموطأ» ٢/٤٣٨].



ذم الدنيا

● الدنيا من أولها إلىٰ آخرها لا تساوي غم ساعة، فكيف بغم العمر؟

● محبوب اليوم يعقب المكروه غدًا، ومكروه اليوم يعقب المحبوب غدًا.

● أعظم الربح في الدنيا أن تشغل نفسك كل وقت بما هو أولىٰ بها، وأنفع لها في معادها.

● إضاعة الوقت أشد من الموت، لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها.

● السير في طلبها سيرٌ في أرض مسبعة، والسباحة فيها سباحة في غدير التمساح، المفروح به منها هو عين المحزون عليه، آلامها متولدة من لذاتها، وأحزانها من أفراحها.

(أرض مسبعة): أي مليئة بالسباع والوحوش.

● تزخرفت الشهوات لأعيُن الطباع، فغض عنها الذين يؤمنون بالغيب، ووقع تابعوها في بيداء الحسرات. فـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾ [لقمان]. وهؤلاء يقال لهم: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ۝٤٦﴾ [المرسلات].

● لاح لهم المشتهىٰ، فلما مدوا أيدي التناول بان لأبصار البصائر خبط الفخ، فطاروا بأجنحة الحذر وصوبوا إلىٰ الرحيل الثاني: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦﴾ [يس].

تلمح القوم الوجود ففهموا المقصود فأجمعوا الرحيل وشمروا للسير في سواء السبيل، فالناس مشتغلون بالفضلات، وهم في قطع الفلوات، وعصافير الهوىٰ في وثاق الشبكة ينتظرون الذبح.

● شهوات الدنيا كلعب الخيال، ونظر الجاهل مقصور علىٰ الظاهر، فأما ذو العقل فيرىٰ ما وراء الستر.

● وقع ثعلبان في شبكة، فقال أحدهما للآخر: أين الملتقىٰ بعد هٰذا؟! فقال: بعد يومين في الدباغة.

● اشتر نفسك اليوم، فإن السوق قائمة، والثمن موجود والبضائع رخيصة، وسيأتي علىٰ تلك السوق والبضائع يوم لا تصل فيه إلىٰ قليل ولا كثير: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩] ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ [الفرقان: ٢٧].

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقىٰ ... وأبصرت يوم الحشر من قد تزودا
ندمت علىٰ أن لا تكون كمثله ... وإنك لم ترصد كما كان أرصدا

● الدنيا لا تساوي نقل أقدامك إليها، فكيف تعدو خلفها؟!

● الدنيا جيفة، والأسد لا يقع علىٰ الجيف.

● الدنيا مجاز والآخرة وطن، والأوطار إنما تطلب في الأوطان.

● تزينت الدنيا لعلي رضي الله عنه فقال: «أنت طالق ثلاثًا لا رجعة لي فيك».

وكانت تكفيه واحدة للسنة، لكنه جمع الثلاث لئلا يتصور الهوىٰ جواز المراجعة، ودينه الصحيح وطبعه السليم يأنفان من المحلل، كيف وهو أحد رواة الحديث: «**لعن الله المحلل**».

● من عشق الدنيا نظرت إلىٰ قدرها عنده فصيرته من خدمها وعبيدها وأذلته، ومن أعرض عنها نظرت إلىٰ كبر قدره فخدمته وذلت له.

● الناس في الدنيا معذبون علىٰ قدر هممهم بها.

❊ ❊ ❊

«التعليق»

الدنيا: سجن المؤمن، وهي حياة قصيرة لا تستحق أن يعيرها الإنسان اهتمامه، وطلابها كلاب تتهارش علىٰ جيفة سرعان ما تنفك عنها، ولذلك فالعاقل من التزم الكتاب والسنة وطرق أبواب الخير، واستعان بالله علىٰ ذلك.

قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء]. وقال الله تعالىٰ: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [الحجر]. وقال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف]. وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس]. وقال الله تعالىٰ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الإسراء]. وقال الله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص].

عن أنس بن مالك ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم تأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة**» [الترمذي ٢٤٦٥، وابن ماجه ٤١٠٥، و«الصحيحة» ٩٥٠].

عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة إن أعطي رضي وإن لم يعط لم يرض**» [البخاري ٦٤٣٥].

(تعس): دعا عليه بالهلاك، وهو الوقوع علىٰ الوجه من العثار. (القطيفة): كساء له خمل. (الخميصة): ثياب خز أو صوف معلمة.

عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يتبع الميت ثلاثةٌ، فيرجع اثنان ويبقىٰ معه واحدٌ، يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقىٰ عمله**» [البخاري ٦٥١٤، ومسلم ٢٩٦٠].

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: نام رسول الله ﷺ علىٰ حصيرٍ، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله! لو اتخذنا لك وطاءً، فقال: «**ما لي وما للدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**» [الترمذي ٢٣٧٧، و«الصحيحة» ٤٣٨].

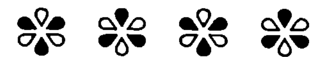
و(طاء): الفراش اللين.

عن عمرو بن الحارث رضي الله عنه قال: ما ترك رسول الله ﷺ عند موته درهمًا ولا دينارًا ولا عبدًا ولا أمة ولا شيئًا؛ إلا بغلته البيضاء وسلاحه، وأرضًا جعلها صدقة» [البخاري ٢٧٣٩].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**انظروا إلىٰ من أسفل منكم، ولا تنظروا إلىٰ من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله**» [البخاري ٦٤٩٠، ومسلم ٢٩٦٣ واللفظ له].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «اشتكىٰ سلمان، فعاده سعدٌ فرآه يبكي، فقال له سعدٌ: ما يبكيك يا أخي؟ أليس قد صحبت رسول الله ﷺ؟ أليس أليس؟ قال سلمان: ما أبكي واحدة من اثنتين، ما أبكي حنينًا للدنيا، ولا كراهية للآخرة، ولكن رسول الله ﷺ عهد إليَّ عهدًا، فما أُراني إلا قد تَعدَّيتُ، قال: وما عهد إليك؟ قال عهد إليَّ أنه يكفي أحدكم مثل زاد الراكب، ولا أُراني إلا قد تعدَّيتُ، وأما أنت يا سعد! فاتق الله عند حكمك إذا حكمت، وعند قسمك إذا قسمت، وعند همكَ إذا هممت، قال ثابت: فبلغني أنه ما ترك إلا بضعة وعشرين درهمًا من نفقةٍ كانت عنده» [رواه أحمد في «المسند» ٥/٤٣٨، و«الزهد»/٢٨، والطبراني في «الكبير» ٦/٢٧٩، ووكيع في «الزهد»/٦٧، وابن سعد في «الطبقات» ٤/٩١، وابن السني في «القناعة»/٤٨].

قيل لبعض الحكماء: ما الغنىٰ؟ قال: قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك» [«الإحياء» ٤/٢١٢].



ذم الكذب وخطر اللسان

● في «السنن» من حديث أبي سعيد الخدري يرفعه: «إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، تقول: اتق الله! فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا» [أخرجه الترمذي ٢٤٠٧، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي»، ورواه أحمد ٩٦/٣، وأبو نعيم في «الحلية» ٣٠٩/٤].

قوله: «تكفر اللسان» قيل: معناه تخضع له.

وفي الحديث: أن الصحابة لما دخلوا علىٰ النجاشي لم يكفروا له ـ أي: لم يسجدوا، ولم يخضعوا ـ ولذلك قال له عمرو بن العاص: أيها الملك! إنهم لا يكفرون لك.

وإنما خضعت للسان: لأنه بريد القلب وترجمانه والواسطة بينه وبين الأعضاء.

وقولها: (إنما نحن بك) أي: نجاتنا بك وهلاكنا بك، ولهٰذا قالت: فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا.

● إياك والكذب فإنه يفسد عليك تصور المعلومات علىٰ ما هي عليه، ويفسد عليك تصويرها وتعليمها للناس، فإن الكاذب يصور المعدوم موجودًا والموجود معدومًا، والحق باطلًا والباطل حقًّا، والخير شرًّا والشر خيرًا، فيفسد عليه تصوره وعلمه عقوبة له، ثم يصور ذلك في نفس المخاطب المغتر به، الراكن إليه فيفسد عليه تصوره وعلمه، ونفس الكاذب معرضة عن الحقيقة الموجودة نزاعة إلىٰ العدم مؤثرة للباطل، وإذا فسدت عليه قوة تصوره وعلمه التي هي مبدأ كل ذي فعل إرادي فسدت عليه تلك الأفعال وسرىٰ حكم الكذب إليها، فصار صدورها عنه كصدور الكذب عن اللسان، فلا ينتفع بلسانه ولا بأعماله.

ولهٰذا كان الكذب أساس الفجور، كما قال النبي ﷺ: «**إن الكذب يهدي إلىٰ الفجور وإن الفجور يهدي إلىٰ النار**» [رواه البخاري ٦٠٩٤، ومسلم ٢٦٠٧، والترمذي ١٩٧١، والطبراني ٢/٩٨٩].

وأول ما يسري الكذب من النفس إلىٰ اللسان فيفسده، ثم يسري إلىٰ الجوارح فيفسد عليها أعمالها، كما أفسد علىٰ اللسان أقواله، فيعم الكذب أقواله وأعماله وأحواله فيستحكم عليه الفساد ويترامىٰ داؤه إلىٰ الهلكة إن لم يتداركه الله بدواء الصدق يقلع تلك المادة من أصلها.

ولهٰذا كان أصل أعمال القلوب كلها الصدق، وأضدادها من: الرياء، والعجب، والكبر، والفخر، والخيلاء، والبطر، والأشر والعجز والكسل، والجبن، والمهانة وغيرها أصلها الكذب فكل عمل صالح ظاهر أو باطن فمنشؤه الصدق، وكل عمل فاسد ظاهر أو باطن فمنشؤه الكذب، والله تعالىٰ يعاقب الكذاب بأن يقعده ويثبطه عن مصالحه ومنافعه، ويثيب الصادق بأن يوفقه للقيام بمصالح دنياه وآخرته.

فما استجلبت مصالح الدنيا والآخرة بمثل الصدق ومفاسدهما ومضارهما بمثل الكذب، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة]. وقال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ [محمد]، وقال: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾ [التوبة].

* * *

«التعليق»

الكذب: يورث فساد الدين والدنيا، ويؤدي صاحبه إلىٰ النار والكاذب مهان وذليل، يسرق العقل كما يسرق اللص المال، وذلك لخسةِ نفسه ودناءتها، ويحقره الناس ويبتعدون عنه.

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «الكذب هو الإخبار بالشيء علىٰ خلاف ما هو عليه سواءٌ كان عمدًا أم خطأً» [«فتح الباري» ٦/٢٤٢].

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النحل]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾﴾ [الصف]. وقال الله تعالىٰ: ﴿الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة].

عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا ومن كانت فيه خصلة منهنَّ كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتىٰ يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» [البخاري ٣٤، ومسلم ٥٨].

عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان مُحقًّا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وببيت في أعلىٰ الجنة لمن حَسُنَ خُلُقُهُ**» [أبو داود ٤٨٠٠، وهو في «السلسلة الصحيحة» ٢٧٣].

(ربض الجنة): أي فيما حولها من خارج منها.

عن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن كذبًا عليَّ ليس ككذب علىٰ أحدٍ، من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**» [البخاري ١٢٩١ واللفظ له، ومسلم في المقدمة ٤].

عن حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**البيعان بالخيار ما لم يتفرقا** ـ أو قال ـ **حتىٰ يتفرقا، فإن صدقا وبيَّنا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا مُحقت بركة بيعهما**» [البخاري ٢٠٧٩ واللفظ له، ومسلم ١٥٣٢].

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثةٌ لا يكلمهم الله يوم**

القيامة ولا ينظر إليهم: رجلٌ حلف علىٰ سلعة لقد أعطي بها أكثر مما أعطي وهو كاذب، ورجلٌ حلف علىٰ يمين كاذبةٍ بعد العصر ليقتطع بها مال رجل مسلم، ورجل منع فضل ماء، فيقول الله: اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك» [رواه البخاري ٢٣٦٩ واللفظ له، ومسلم ١٠٨].

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كفىٰ بالمرء كذبًا أن يُحدِّث بكل ما سمع**» [رواه مسلم في المقدمة ٥].

عن أبي هريرة ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: «**يكون في آخر زمان دجَّالون كذَّابون يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم، لا يضلونكم، ولا يفتنونكم**» [رواه مسلم في المقدمة ٧].

عن أسماء ﷺ قالت: جاءت امرأة إلىٰ النبي ﷺ فقالت: إن لي ضَرَّةً فهل عليَّ جناح أن أتشبَّع من مال زوجي بما لم يعطني؟ فقال رسول الله ﷺ: «**المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور**» [رواه البخاري ٥٢١٩، ومسلم ٢١٣٠].

(المتشبع بما لم يعط): هو الذي يتشبه بالشبعان وليس به، ولذا شبه بلابس ثوبي زور: أي: الذي يزور علىٰ الناس أنه يلبس ثوبين وليس عليه إلا ثوب واحد.

وفي حديث الإفك الطويل قالت عائشة: «وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ عن أمري ما عَلِمت؟ أو ما رأيت؟» فقالت: يا رسول الله! أحمي سمعي وبصري، والله ما علمتُ إلا خيرًا، قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها حمنة بنت جحش تُحارب لها، فهلكت فيمن هلك» [البخاري ٤١٤١، ومسلم ٢٧٧٠].

(تساميني): تفاخرني وتضاهيني بجمالها ومكانها عند النبي ﷺ. (وطفقت أختها تحارب لها): أي جعلت تتعصب لها فتحكي ما يقوله أهل الإفك.

قال عمر بن الخطاب ﷺ: «لأن يضعني الصدق ـ وقلما يضعُ ـ أحب إليَّ من أن يرفعني الكذب، وقلما يفعلُ» [«أدب الدنيا والدين»/ ٢٥٥].

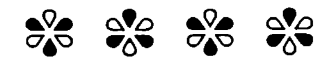
عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: «إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فلأن أخرَّ

من السماء أحبُّ إليَّ من أن أكذب عليه، وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فإن الحرب خُدعةٌ» [البخاري - «الفتح» ٦/٣٦١١].

قال إبراهيم التيمي: «ما عرضت قولي علىٰ عملي؛ إلا خشيت أن أكون كاذبًا» [«فتح الباري» ١/١٣٥].

قال أبو عبد الله الإمام أحمد: «الكذب لا يصلح منه جدٌّ ولا هزلٌ» [«الآداب الشرعية» ١/٢٠].

وقال الذهبي: «يطبع المسلم علىٰ الخصال كلها؛ إلا الخيانة والكذب» [الميزان، اللسان].



ذم البخل والحرص

- البخيل فقير، لا يؤجر علىٰ فقره.
- لو قدمت لقمة وجدتها، ولكن يؤذيك الشره.

(وجدتها): أي وجدت ثوابها وأجرها يوم القيامة. (الشره): شدة الحرص في الطعام وغيره.

❊ ❊ ❊

«التعليق»

البخل: ليس من صفات الأنبياء ولا السادة الشرفاء، وهو دليل علىٰ سوء الظن بالله ﷻ، وقلة العقل، والبخيل محروم في الدنيا، ومؤاخذ في الآخرة.

قال المناوي: البخل: إمساك المقتنيات عما لا يحل حبسها عنه وضده الجود» [«التوقيف علىٰ مهمات التعاريف» ٧٢].

وقال القرطبي: البخل المذموم في الشرع هو امتناع المرء عن أداء ما أوجب الله تعالىٰ عليه» [«تفسير القرطبي» ٥/١٢٦].

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾ [النساء]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ

﴿٧٦﴾ [التوبة]. وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحديد]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل].

عن يعلىٰ بن منبه الثقفي رضي الله عنه قال: جاء الحسن والحسين يستبقان إلىٰ رسول الله ﷺ فضمهما إليه ثم قال: «**إن الولد مبخلةٌ مجبنةٌ محزنةٌ**» [رواه ابن ماجه ٣٦٦٦، وأحمد ١٧٢/٤، وذكره الألباني في «صحيح الجامع» ١٩٨٦].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث منجياتٌ: خشية الله تعالىٰ في السِّر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنىٰ، وثلاثٌ مهلكاتٌ: هوىً متبعٌ، وشحٌّ مطاعٌ، وإعجاب المرء بنفسه**» [انظر: «صحيح الجامع الصغير» ٣٠٣٩، و«السلسلة الصحيحة» ١٨٠٢].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللَّهمَّ أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللَّهمَّ أعط ممسكًا تلفًا**» [البخاري ١٤٤٢، ومسلم ١٠١٠].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يتقارب الزمان، وينقص العمل، ويلقىٰ الشح، ويكثر الهرج**»، قالوا: وما الهرج؟ قال: «**القتل القتل**» [البخاري ٦٠٣٧، ومسلم ١٥٧].

(وينقص العمل): في مسلم وينقص العلم، قال ابن حجر: وينقص العلم وهو المعروف في هٰذا الحديث.

قال علي رضي الله عنه: «البخيل جلبابُ المسكنة، وربما دخل السَّخي بسخائه الجنة» [«الآداب الشرعية» ٣١٢/٣].

قال عبد الله بن عمر ﷺ: «الشح أشد من البخل، لأن الشحيح هو الذي يشحُّ علىٰ ما في يد غيره حتىٰ يأخذه، ويشح بما في يده فيحبسه، والبخيل هو الذي يبخل بما في يده» [«الإحياء» ٣/٢٥٥].

قال طلحة بن عبيد الله ﷺ: «إنا لنجد بأموالنا ما يجد البخلاء لكننا نتصبر» [«الإحياء» ٣/٢٥٥].

روي أن الأحنف بن قيس رحمه الله تعالىٰ رأىٰ رجلًا في يده درهم فقال: لمن هٰذا الدرهم؟ قال: لي، فقال: أما إنه ليس لك حتىٰ يخرج من يدك، وفي معناه قيل:

«أنت للمال إذا أمسكته ... فإذا أنفقته فالمال لك»

[«الإحياء» ٣/٢٥٥].

قال محمد بن المنكدر رحمه الله تعالىٰ: «كان يقال: إذا أراد الله بقوم شرًّا أمّر عليهم شرارهم، وجعل أرزاقهم بأيدي بخلائهم» [«الإحياء» ٣/٢٥٥].

قال الضحاك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ [يٓس: ٨] قال: «البخل، أمسك الله تعالىٰ أيديهم عن النفقة في سبيل الله فهم لا يبصرون الهدىٰ» [«الإحياء» ٣/٢٥٥].

قال الأصمعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سمعت أعرابيًا وقد وصف رجلًا فقال: لقد صغر فلانٌ في عيني لعظم الدنيا في عينه، وكأنما يرىٰ السائل ملك الموت إذا أتاه» [«الآداب الشرعية» ٣/٣١٣، و«الإحياء» ٣/٢٥٥].

❀ ❀ ❀ ❀

العبادة

● الغاية أول في التقدير، آخر في الوجود، مبدأ في نظر العقل، منتهًى في منازل الوصول. أي: إذا بان لك الهدف سهل لك سلوك الطريق.

● لله سبحانه علىٰ عبده أمرَ أمره به، وقضاءً يقضيه عليه، ونعمةً ينعم بها عليه، فلا ينفك من هٰذه الثلاثة.

● الجهل بالطريق وآفاتها وبالمقصود: يوجب التعب الكثير مع الفائدة القليلة، فإن صاحبه: إما أن يجتهد في نافلة مع إضاعة الفرض، أو في عمل بالجوارح لم يواطئه عمل القلب، أو عمل بالباطن والظاهر لم يتقيد بالاقتداء، أو همة إلىٰ عمل لم ترق بصاحبها إلىٰ ملاحظة المقصود، أو عمل لم يحترز من آفاته المفسدة له حال العمل وبعده، أو عمل غفل فيه عن مشاهدة المنة فلم يتجرد عن مشاركة النفس فيه، أو عمل لم يشهد تقصيره فيه فيقوم بعده في مقام الاعتذار منه، أو عمل لم يوفه حقه من النصح والإحسان، وهو يظن أنه وفاه فهٰذا كله مما ينقص الثمرة مع كثرة التعب، والله الموفق.

● أقام الله سبحانه هٰذا الخلق بين الأمر والنهي، والعطاء والمنع فافترقوا فرقتين:

ـ فرقة قابلت أمره بالترك، ونهيه بالارتكاب، وعطاءه بالغفلة عن الشكر، ومنعه بالسُّخط، وهؤلاء أعداؤه، وفيهم من العداوة بحسب ما فيهم من ذلك.

ـ وقسم قالوا: إنما نحن عبيدك فإن أمرتنا سارعنا إلىٰ الإجابة، وإن نهيتنا أمسكنا نفوسنا وكففناها عما نهيتنا عنه، وإن أعطيتنا حمدناك وشكرناك، وإن منعتنا تضرعنا إليك وذكرناك، فليس بين هؤلاء وبين الجنة؛ إلّا ستر الحياة الدنيا، فإذا مزقه عليهم الموت صاروا إلىٰ النعيم المقيم وقرة الأعين، كما أن

أولئك ليس بينهم وبين النار إلا ستر الحياة، فإذا مزقه الموت ساروا إلىٰ الحسرة والألم.

● وإذا تصادمت جيوش الدنيا والآخرة في قلبك، وأردت أن تعلم من أي الفريقين أنت: فانظر مع من تميل منهما ومع من تقاتل إذ لا يمكنك الوقوف بين الجيشين، فأنت مع أحدهما لا محالة.

فالفريق الأول استغشوا الهوىٰ فخالفوه، واستنصحوا العقل فشاوروه، وفرغوا قلوبهم للفكر فيما خلقوا له، وجوارحهم للعمل بما أمروا به، وأوقاتهم لعمارتها بما يعمر منازلهم في الآخرة، واستظهروا علىٰ سرعة الأجل بالمبادرة إلىٰ الأعمال، وسكنوا الدنيا وقلوبهم مسافرة عنها، واستوطنوا الآخرة قبل انتقالهم إليها، واهتموا بالله وطاعته علىٰ قدر حاجتهم إليه وتزودوا للآخرة علىٰ قدر مقامهم فيها، فعجل لهم سبحانه من نعيم الجنة وروحها أن آنسهم بنفسه، وأقبل بقلوبهم إليه، وجمعها علىٰ محبته وشوقهم إلىٰ لقائه ونعمهم بقربه، وفرغ قلوبهم مما ملأ قلوب غيرهم من محبة الدنيا والهم والحزن علىٰ فوتها والغم من خوف ذهابها، فاستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدانهم، والملأ الأعلىٰ بأرواحهم.

❋ ❋ ❋

«التعليق»

إن أقرب الأبواب للوصول إلىٰ الله ﷻ هو باب الذل الذي يؤدي إلىٰ أن ينظر الله إلىٰ العبد بعين الرحمة فيجعله من المفلحين، ويجعل روحه في خفة ونشاط للعبادة تسمو إلىٰ الملأ الأعلىٰ، بخلاف المعرض على الله الذي ليس له هم إلا كثرة الأكل والشرب والنوم فتقل عبادته وتثقل روحه.

والعبادة: ثوابها الفوز بالجنة والنجاة من النار.

قال ابن تيمية رحمه الله: «العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة.

وقيل: هي اسم يجمع كمال الحبُ لله ونهايته، وكمال الذل لله ونهايته.

وقيل: عبادة الله: طاعته بفعل المأمور، وترك المحذور» [«العبودية» لابن تيمية/٥، و«تيسير العزيز الحميد»/٤٧، و«قرة عيون الموحدين» ١٥، و«فتح المجيد»/١٤].

قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦٤﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾ [الزخرف]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾ [الحج].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يرضىٰ لكم ثلاثًا ويكره لكم ثلاثًا: فيرضىٰ لكم: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**» [رواه مسلم ١٧١٥].

(الاعتصام بحبل الله): التمسك بعهده واتباع كتابه والتأدب بآدابه. (قيل وقال): هو الخوض في أخبار الناس. (كثرة السؤال): المراد به التنطع في المسائل والإكثار من السؤال عما لم يقع، ولا تدعو إليه الحاجة.

عن معقل بن يسار رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**العبادة في الهرج كهجرة إليَّ**» [مسلم ٢٩٤٨].

المراد (بالهرج): الفتنة واختلاف أمور الناس.

عن عبد الله بن مسعود ﵁ قال: «صليت مع النبي ﷺ ليلةً فلم يزل قائمًا حتىٰ هممت بأمر سوء، قيل له: وما هممت؟ قال: هممتُ أن أقعد وأذر النبي ﷺ» [البخاري ١١٣٥، ومسلم ٧٧٢].

كان علي بن الحسين إذا توضأ اصفر وتغير، فيقال: ما لك؟ فيقول: «أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟» [«مختصر منهاج القاصدين» ٣١٤].

عن عبيد الله بن عبد الله بن عُتبة قال: «كان عبد الله بن مسعود إذا هدأت العيون قام فسمعت له دويًا كدوي النحل» [«الزهد» للإمام وكيع بن الجراح ٣٩١/١].

قال أبو البحتري ﵀: «لوددت أن الله يطاع وأني عبد مملوك» [«الزهد» لابن المبارك/٦٩].

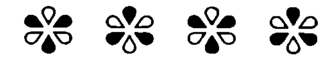
قال ابن تيمية ﵀: «كلما ازداد العبد تحقيقًا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته، ومن توهم أن المخلوق يخرج من العبودية بوجه من الوجوه، أو أن الخروج عنها أكمل فهو من أجهل الخلق بل من أضلهم» [«العبودية»/٣٤].

وقال ﵀: «التوحيد الذي جاءت به الرسل إنما يتضمن إثبات الإلٰهية لله وحده بأن يشهد أن لا إلٰه إلا الله لا يعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يوالي إلا له، ولا يعادي إلا فيه ولا يعمل إلا لأجله» [«فتح المجيد»/١٥].

وقال ابن القيم ﵀:

فعباد الرحمٰن غاية حبه ... مع ذل عابده هما قطبان
وعليهما فلك العباد دائر ... ما دار حتىٰ قامت القطبان

[«الدر النضيد» سليمان الحمدان/٩].



الاتباع

● قيل للحسن (البصري): سبقنا القوم علىٰ خيل دُهمٍ، ونحن علىٰ حُمر معقرة!

فقال: إن كنت علىٰ طريقهم فما أسرع اللحاق بهم.

● احترز من عدوين هلك بهما أكثر الخلق: صادٌ عن سبيل الله بشبهاته وزخرف قوله، ومفتون بدنياه ورئاسته.

● إذا كان الله ورسوله ﷺ في جانب، فاحذر أن تكون في الجانب الآخر، فإن ذلك يفضي إلىٰ المشاقة والمحاداة، وهٰذا أصلها ومنه اشتقاقها، فإن المشاقة أن يكون في شق ومن يخالفه في شق، والمحاداة أن يكون في حد وهو في حد، ولا تستسهل هٰذا فإن مبادئه تجر إلىٰ غايته، وقليله يدعو إلىٰ كثيره.

● وكن في الجانب الذي فيه الله ورسوله ﷺ وإن كان الناس كلهم في الجانب الآخر، فإن لذلك عواقب هي أحمد العواقب وأفضلها، وليس للعبد أنفع من ذلك في دنياه قبل آخرته، وأكثر الخلق إنما يكونون في الجانب الآخر ولا سيما إذا قويت الرغبة والرهبة، فهناك لا تكاد تجد أحدًا في الجانب الذي فيه الله ورسوله، بل يعده الناس ناقص العقل، سيّئ الاختيار لنفسه، وربما نسبوه إلىٰ الجنون، وذلك من مواريث أعداء الرسل، فإنهم نسبوهم إلىٰ الجنون لما كانوا في شق وجانب، والناس في شق وجانب آخر، ولكن من وطن نفسه علىٰ ذلك فإنه يحتاج إلىٰ:

أ ـ علم راسخ بما جاء به الرسول ﷺ يكون يقينًا له، لا ريب عنده فيه.

ب ـ صبر تام علىٰ معاداة من عاداه، ولومة من لامه.

● ولا يتم له ذلك إلا برغبة قوية في الله والدار الآخرة، بحيث تكون

الآخرة أحب إليه من الدنيا، وآثر عنده منها، ويكون الله ورسوله ﷺ أحب إليه مما سواهما، وليس شيء أصعب علىٰ الإنسان من ذلك في مبادئ الأمر، فإن نفسه وهواه وطبعه وشيطانه وإخوانه ومعاشريه من ذلك الجانب يدعونه إلىٰ العاجل، فإذا خالفهم تصدوا لحربه، فإن صبر وثبت جاءه العون من الله وصار ذلك الصعب سهلًا وذلك الألم لذة، فإن الرب شكور، فلا بد أن يذيقه لذة تحيزه إلىٰ الله وإلىٰ رسوله يريه كرامة ذلك، فيشتد به سروره وغبطته، ويبتهج به قلبه، ويظفر بقوته وفرحه وسروره، ويبقىٰ من كان محاربًا له علىٰ ذلك بين هائب له، ومسالم له ومساعد، وتارك، ويقوىٰ جنده، ويضعف جند عدوه.

● ولا تستصعب مخالفة الناس والتحيز إلىٰ الله ورسوله ﷺ ولو كنت وحدك، فإن الله معك، وأنت بعينه وكلاءته وحفظه لك، وإنما امتحن يقينك وصبرك.

وأعظم الأعوان لك علىٰ هٰذا بعد عون الله التجرد من الطمع والفزع، فمتىٰ تجردت منهما هان عليك التحيز إلىٰ الله ورسوله، وكنت دائمًا في الجانب الذي فيه الله ورسوله، ومتىٰ قام بك الطمع والفزع، فلا تطمع في هٰذا الأمر ولا تحدث نفسك به، فإن قلت: فبأي شيء أستعين علىٰ التجرد من الطمع ومن الفزع؟ قلت: بالتوحيد والتوكل، والثقة بالله، وعلمك بأنه لا يأتي بالحسنات إلا هو ولا يذهب بالسيئات إلا هو، وأن الأمر كله لله، ليس لأحد مع الله شيء.

● لما كمل الرسول ﷺ مقام الافتقار إلىٰ الله سبحانه أحوج (سبحانه) الخلائق كلهم إليه في الدنيا والآخرة، أما حاجتهم إليه في الدنيا، فأشد من حاجتهم إلىٰ الطعام والشراب والنفس الذي به حياة أبدانهم، وأما حاجتهم إليه في الآخرة فإنهم يستشفعون بالرسل إلىٰ الله حتىٰ يريحهم من ضيق مقامهم، فكلهم يتأخر عن الشفاعة فيشفع هو لهم ﷺ، وهو الذي يستفتح لهم باب الجنة.

● نور الحق أضوأ من الشمس، فيحق لخفافيش البصائر أن تعشو عنه.

❋ ❋ ❋

«التعليق»

الاتباع: يجلب رحمة الله تعالىٰ ومغفرته، ودليل علىٰ الفلاح والهداية وقبول التوبة، وخروج من البدع والهوىٰ، والمتبع الكتاب والسنة يسعد في الدنيا والآخرة.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي ﷺ وعن أصحابه ثم هو من بعدُ في التابعين مُخيَّرٌ».

وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الاتباع ما ثبت عليه الحجة، وهو اتباع كل من أوجب عليك الدليل اتباع قوله، فالرسول ﷺ هو المثل الأعلىٰ في اتباع ما أمر به» [«أضواء البيان» للشنقيطي ٧/٥٤٨].

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يونس]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام]. وقال الله تعالىٰ: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يس]. وقال الله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [لقمان]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [غافر]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان].

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خطّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا، ثم قال: «**هٰذا سبيل الله**»، ثم خط خطوطًا عن يمينه وعن شماله ثم قال: «**هٰذه سُبلٌ**»

قال يزيد: متفرقةٌ علىٰ سبيل منها شيطانٌ يدعو إليه ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام]» [رواه أحمد ١/٤٣٥ واللفظ له، والحاكم ٢/٣١٨، وحسنه الألباني في «السنة» لابن أبي عاصم ١٣].

عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**ما من الأنبياء نبيٌّ إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**» [رواه البخاري ٤٩٨١ واللفظ له، ومسلم ١٥٢].

عن أنس بن مالك ﷺ؛ أن نفرًا من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السِّر؟ فقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام علىٰ فراش. فحمد الله وأثنىٰ عليه فقال: «**ما بال أقوامٍ قالوا كذا وكذا؟ ولكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**» [مسلم ١٤٠١].

عن ابن عمر ﷺ قال: «اتخذ النبي ﷺ خاتمًا من ذهب، فاتخذ الناس خواتيم من ذهب، فقال النبي ﷺ: «**إني اتخذتُ خاتمًا من ذهب**» فنبذه، وقال: «**إني لن ألبسه أبدًا**»؛ فنبذ الناس خواتيمهم» [رواه البخاري ٧٢٩٨].

عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر**» [الترمذي ٣٦٦٢ واللفظ له، وابن ماجه ٩٧، وأحمد ٥/٣٨٥، وابن أبي عاصم في «السنة» ١١٤٨، وهو في «الصحيحة» ١٢٣٣].

قال عمر ﷺ: «اتهموا الرأي علىٰ الدين، فلقد رأيتني أرُدُّ أمر رسول الله ﷺ برأي اجتهادًا، فوالله ما آلو عليه الحق» وذلك يوم أبي جندل حتىٰ قال لي رسول الله ﷺ: «**تراني أرضىٰ وتأبىٰ؟**» [«الفتح» ١٣/٢٨٩، وعزاه الحافظ للطبري والطبراني والبيهقي في «المدخل»].

عن علي بن أبي طالب ﷺ: «لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولىٰ بالمسح من أعلاهُ»، وزاد أبو داود: «وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح علىٰ ظاهر خُفيه» [أبو داود ١٦٢، وقال الحافظ في «الفتح»: إسناده حسن ١٣/٢٨٩، وأحمد ١/٩٥].

عن عبد الله بن عمر ﷺ قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنكم إليها**»، فقال بلال بن عبد الله: والله لنمنعهنَّ! قال: فأقبل عليه عبد الله فسبَّهُ سَبًا سيئًا، ما سمعته سَبَّهُ مثله قطُّ، وقال: أخبرك عن رسول الله ﷺ وتقول: والله لنمنعهنَّ!» [رواه البخاري ١٥٧٣، ومسلم ١٢٥٩].

عن عمر بن الخطاب ﷺ؛ أنه جاء إلىٰ الحجر الأسود فقبَّله فقال: «إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي ﷺ يقبّلك ما قبلتك» [البخاري ١٥٩٧، ومسلم ١٢٧٠].

عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: «فيم الرملان اليوم، والكشف عن المناكب؟ وقد أطأ الله الإسلام ونفىٰ الكفر وأهله، مع ذلك لا ندع شيئًا كنا نفعله علىٰ عهد رسول الله ﷺ» [أبو داود ١٨٨٧، وابن ماجه ٢٩٥٢].

(الرملان): هو تقارب الخطىٰ في المشي مع هز الكتفين. (أطأ): يعني وطا الشيء وثبته وأحكمه.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «من كان منكم مستنًا فليستن بمن قد مات إن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد كانوا أفضل هٰذه الأمة: أبرها قلوبًا وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، اختارهم الله لصحبة نبيه ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم علىٰ أثرهم وسيرتهم، فإنهم كانوا علىٰ الهُدىٰ المستقيم» [«إغاثة اللهفان» ١/١٥٩].

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السنة: والذي لا إلٰه إلا هو بين الغالي والجافي فاصبروا عليها رحمكم الله، فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضىٰ، وهم أقل الناس فيما بقىٰ، الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا علىٰ سنتهم حتىٰ لقوا ربهم، فكذلك إن شاء الله فكونوا» [«إغاثة اللهفان» ١/٧٠].

قال الشعبي رحمه الله تعالىٰ: «شهدت شريحًا ـ وجاءهُ رجلٌ من مراد ـ فقال يا أبا أُمية! ما دية الأصابع؟ قال: عشر عشرٌ، قال: يا سبحان الله! أسواءٌ هاتان؟ جمع بين الخنصر والإبهام، فقال شريح: يا سبحان الله! أسواء أذنك ويدك؟ فإن الأذن يواريها الشعر والكُمة، فيها نصف الدية، وفي اليد نصف الدية، ويحك!

إن السنة سبقت قياسكم، فاتبع ولا تبتدع، فإنك لن تضل ما أخذت بالأثر، ثم قال لي الشعبي: يا هُذلي! لو أن أحنفكم قُتل، وهٰذا الصبي في مهده أكان ديتهما سواء؟ قلت: نعم، قال: فأين القياس» [سنن الدارمي ١/٧٠].

(الكمة): القلنسوة.

قال ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: «كان عمر ﷺ يهمُّ بالأمر ويعزم عليه فإذا قيل له لم يفعله رسول الله ﷺ انتهىٰ» [«إغاثة اللهفان» ١/١٣٦].

قال سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اسلكوا سبيل الحق ولا تستوحشوا من قلة أهله» [«الاعتصام» ١/٣٤].

قال أبو الزناد رحمه الله تعالىٰ: «إن السنن ووجوه الحق لتأتي كثيرًا علىٰ خلاف الرأي فيما يجد المسلمون بُدًا من اتباعها» [البخاري - «الفتح» ٤/٢٢٥].

وقال الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ندور مع السنة حيث دارت» [«أصول الاعتقاد» ١/٦٤].

❀ ❀ ❀ ❀

التوفيق والخذلان

● وحَّدَ قسٌّ وما رأىٰ النبي ﷺ، وكفر ابن أُبيّ وقد صلىٰ معه في المسجد.

● مع الصبُ ريٌّ ولا ماء، وكم من عطشان في اللجة.

● كيف يسلم من له زوجة لا ترحمه، وولد لا يعذره، وجار لا يأمنه، وصاحب لا ينصحه، وشريك لا ينصفه، وعدو لا ينام عن معاداته، ونفس أمارة بالسوء، ودنيا متزيِّنة، وهوىٰ مُردٍ، وشهوة غالبة له، وغضب قاهر، وشيطان مزين وضعف مستولٍ عليه، فإن تولاه الله وجذبه إليه انقهرت له هٰذه كلها، وإن تخلىٰ عنه ووكله إلىٰ نفسه اجتمعت عليه، فكانت الهلكة.

● من أراد من العمال أن يعرف قدره عند السلطان، فلينظر ماذا يوليه من العمل، وبأي شغل يشغله.

● تالله ما عدا عليك العدو إلا بعد أن تولىٰ عنك الولي، فلا تظن أن الشيطان غلب، ولكن الحافظ أعرض.

● العقول المؤيدة بالتوفيق ترىٰ أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الموافق للعقل والحكمة، والعقول المضروبة بالخذلان ترىٰ المعارضة بين العقل والنقل، وبين الحكمة والشرع.

● أساس كل خير أن تعلم أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فتتيقن حينئذ أن الحسنات من نعمه فتشكره عليها، وتتضرع إليه أن لا يقطعها عنك، وأن السيئات من خذلانه وعقوبته، فتبتهل إليه أن يحول بينك وبينها، ولا يكلك في فعل الحسنات وترك السيئات إلىٰ نفسك.

● قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: «إني لا أحمل هم الإجابة، ولكن هم الدعاء».

فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه علىٰ قدر نية العبد وهمته ومراده ورغبته في ذلك يكون توفيقه سبحانه وإعانته، فالمعونة من الله تنزل علىٰ العباد علىٰ قدر هممهم وثباتهم ورغبتهم ورهبتهم، والخذلان ينزل عليهم علىٰ حسب ذلك. فالله سبحانه أحكم الحاكمين، وأعلم العالمين، يضع التوفيق في مواضعه اللائقة به، والخذلان في مواضعه اللائقة به، وهو العليم الحكيم.

● وما أوتي من أُتي إلا من قبل إضاعة الشكر وإهمال الافتقار والدعاء، ولا ظفر من ظفر بمشيئة الله وعونه إلا بقيامه بالشكر وصدق الافتقار والدعاء، وملاك ذلك الصبر فإنه من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس فلا بقاء للجسد.

❊ ❊ ❊

«التعليق»

من كمال الإيمان الاستغناء بالله عمن سواه، والفرح بالله تعالىٰ وطاعته وتوفيقه من غير التفات للدنيا وشهواتها مع الانكسار بين يدي الله اعترافًا بالخطأ وإقرارًا بالتقصير.

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس]. وقال الله تعالىٰ: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ [يوسف]. وقال الله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل].

عن عبد الله بن زيد بن عاصم المازني ﷺ أنه قال: لما أفاء الله علىٰ رسوله ﷺ يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم، ولم يُعْطِ الأنصار شيئًا، فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم فقال: «**يا معشر**

الأنصار! ألم أجدكم ضلالًا فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي؟» كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أمنُّ، قال: «**ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ؟**» قال: كلما قال شيئًا، قالوا: الله ورسوله أمنُّ، قال: «**لو شئتم قلتم: جئتنا كذا وكذا، ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي ﷺ إلىٰ رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس واديًا وشِعبًا لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار والناس دثار إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتىٰ تلقوني علىٰ الحوض**» [البخاري ٤٣٣٠، ومسلم ١٠٦١].

(وجدوا): أي: غضبوا. (شعار): ما يلي الجسد. (دثار): ما يتدثر به الإنسان وهو ما يلقيه عليه من كساء أو غيره فوق الشعار. (أثرة): استئثار بأمور الدنيا، والأصل فيه الانفراد بالشيء المشترك دون من يشركه فيه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «أتىٰ جبريلُ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! هٰذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه إدام أو طعامٌ أو شرابٌ، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها عز وجل ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب» [البخاري ٧٤٩٧، ومسلم ٢٤٣٣].

(إدام): ما يؤتدم به وهو ما يؤكل مع الخبز. (قصب): اللؤلؤ المجوف. (الصخب): الصوت المختلط المرتفع. (نصب): الحزن والإعياء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**لينتهينَّ أقوامٌ يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم جهنم، أو ليكوننَّ أهون على الله من الجُعل الذي يدهدهُ الخرءَ بأنفه، إن الله قد أذهب عنكم عُبية الجاهلية، إنما هو مؤمنٌ تقيٌّ وفاجر شقيٌّ، الناس كلهم بنو آدم، وآدم خلق من تراب**» قال: وفي الباب عن ابن عمر وابن عباس [أبو داود ٥١١٦، وحسنه الألباني ٣/١٦٤، وهو في «صحيح سنن الترمذي» ٤٢٣٣].

قال الحسن البصري رحمه الله تعالىٰ: «أبىٰ الله إلا أن يُذل أهل معصيته، فمهما طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين فإن ذل المعصية في رقابهم» [«الجواب الكافي» ٦٧].

(هملجت بهم البراذين): مشت مشيًا سهلًا، والبرذون: الفرس غير الأصيل.

وقال الشاعر:

«لا تخضعنَّ لمخلوق علىٰ طمعٍ ... فإن ذلك نقص منك في الدين

واسترزق اللّٰه مما في خزائنه ... فأمر ربك بين الكاف والنون»

❀ ❀ ❀ ❀

فضل الصحابة

● فضل أهل بدر:

قول النبي ﷺ لعمر رضي الله عنه: «**وما يدريك أن الله اطلع علىٰ أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**» [البخاري ٣٩٨٣، ومسلم ٢٤٩٤].

من كلام عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

● قال رجل عنده: ما أحب أن أكون من أصحاب اليمين، أحب أن أكون من المقربين.

فقال عبد الله: لكن هاهنا رجل ودَّ أنه إذا مات لم يبعث ـ يعني: نفسه ـ.

● وقال: لو تعلمون مني ما أعلم من نفسي لحثوتم علىٰ رأسي التراب.

● وخرج رضي الله عنه ذات يوم فاتبعه ناسٌ، فقال لهم: ألكم حاجة؟! قالوا: لا؛ ولكن أردنا أن نمشي معك، قال: ارجعوا، فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع.

● المتقون سادة، والفقهاء قادة، ومجالستهم زيادة.

● وقال: حبذا المكروهان: الموت والفقر، وأيم الله إن هو إلا الغنىٰ والفقر، وما أبالي بأيهما بليت، أرجو الله في كل واحد منهما، إن كان الغنىٰ أن فيه للعطف، وإن كان الفقر أن فيه للصبر.

● وقال: إنكم في ممر الليل والنهار في آجال منقوصة، وأعمال محفوظة، والموت يأتي بغتة فمن زرع خيرًا فيوشك أن يحصد رغبة، ومن زرع شرًّا فيوشك أن يحصد ندامة، ولكل زارع مثل ما زرع، لا يسبق بطيء بحظه، ولا يدرك حريص ما لم يقدر له.

● ما دمت في صلاة فأنت تقرع باب الملِك، ومن يقرع باب الملِك يُفتح له.

● إني لأحسب الرجل ينسىٰ العلم كان يعلمه بالخطيئة يعملها.

● كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدىٰ، أحلاس البيوت، سرج الليل جُدُدَ القلوب، خلقان الثياب، تعرفون في السماء، وتخفون علىٰ أهل الأرض.

● إن للقلوب شهوة وإدبارًا، فاغتنموها عند شهوتها وإقبالها، ودعوها عند فترتها وإدبارها.

● ليس العلم بكثرة الرواية، ولكن العلم الخشية.

● إنكم ترون الكافر من أصح الناس جسمًا وأمرضه قلبًا، وتلقون المؤمن من أصح الناس قلبًا وأمرضه جسمًا، وأيم الله لو مرضت قلوبكم وصحت أجسامكم لكنتم أهون على الله من الجعلان.

● لو سَخِرتُ من كلب لخشيت أن أحول كلبًا.

● ما علىٰ وجه الأرض شيء أحوج إلىٰ طول سجن من لِسان.

● إذا ظهر الزنىٰ والربا في قرية أذن بهلاكها.

● من استطاع منكم أن يجعل كنزه في السماء حيث لا يأكله السوس، ولا يناله السراق؛ فليفعل، فإن قلب الرجل مع كنزه.

● لا يقلدن أحدكم دينه رجلًا، فإن آمن آمن، وإن كفر كفر، وإن كنتم لا مقتدين فاقتدوا بالميت، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة.

● وقال له رجل: علمني كلمات جوامع نوافع، فقال: اعبد الله لا تشرك به شيئًا، وزل مع القرآن حيث زال، ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيدًا بغيضًا، ومن جاءك بالباطل فاردد عليه وإن كان حبيبًا قريبًا.

● اطلب قلبك في ثلاثة مواطن: عند سماع القرآن، وفي مجالس الذكر، وفي أوقات الخلوة، فإن لم تجده في هٰذه المواطن فسل الله أن يمن عليك بقلب فإنه لا قلب لك.

❋ ❋ ❋

«التعليق»

الصحابة: فضلهم عظيم لصحبتهم للنبي ﷺ، وقاموا بنصرة هٰذا الدين العظيم، وبذلوا أنفسهم للدفاع عنها ونشروا الإسلام ولم يخشوا أحدًا إلا الله تعالىٰ، ورفعوا رايات الإسلام، وبلغوا من بعدهم بصدق وأمانة.

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة]. وقال الله تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح]. وقال الله تعالىٰ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر].

عن عمران بن الحصين رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال: «**خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**» قال عمران: فما أدري قال النبي ﷺ مرتين أو ثلاثًا؟! «**ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يُستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السِّمَنُ**» [رواه البخاري ٦٤٢٨، ومسلم ٢٥٣٥].

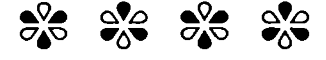
كان صحابة رسول الله ﷺ يطمعون فيما عند الله من الأجر والثواب، فقد نقلوا إلينا الدين بأكمل الوجه وأتمه.

عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أنه قال: لأرمقنَّ الليلة صلاة رسول الله ﷺ

قال: فتوسدت عتبتهُ أو فسطاطهُ فصلىٰ رسول الله ﷺ ركعتين خفيفتين، ثم صلىٰ ركعتين طويلتين طويلتين طويلتين، ثم صلىٰ ركعتين دون اللتين قبلهما، ثم صلىٰ ركعتين دون اللتين قبلهما، ثم صلىٰ ركعتين دون اللتين قبلهما، ثم صلىٰ ركعتين دون اللتين قبلهما، ثم أوتر فتلك ثلاث عشرة ركعة» [روه مسلم ٧٦٥، وأبو داود ١٣٦٦ واللفظ له].

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه**» [البخاري ٣٦٧٣، وأبو داود ٤٦٥٥، والترمذي ٣٨٦١].

وللصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ﷺ كلمات رائعة ونفيسة وصف بها صحابة رسول الله ﷺ حيث قال: «إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه، وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون علىٰ دينه» [رواه أحمد في «المسند» ٣٧٩/١، والطيالسي في «المسند»/ ٢٣، والخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» ١٠٠/٢، والبيهقي في «الاعتقاد» ٢٠٨، وهو في «السلسلة الضعيفة» ٥٣٣].



الأخوة في اللّٰه وحرمة المسلم

● الاجتماع بالإخوان قسمان:

أحدهما: اجتماع علىٰ مؤانسة الطبع وشغل الوقت، فهٰذا مضرته أرجح من منفعته، وأقل ما فيه أنه يفسد القلب ويضيع الوقت.

الثاني: الاجتماع بهم علىٰ التعاون علىٰ أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر، فهٰذا من أعظم الغنيمة وأنفعها.

● ودخلوا علىٰ بشر الحافي في يوم شديد البرد وقد تجرد وهو ينتفض، فقال: ما هٰذا يا أبو نصر؟! فقال: ذكرت الفقراء وبردهم وليس لي ما أواسيهم، فأحببت أن أواسيهم في بردهم.

❋ ❋ ❋

«التعليق»

قال ابن حجر في قوله تعالىٰ: «﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ يعني: في التواد وشمول الدعوة» [«الفتح» ٧/٣١٨].

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران]. قال الله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا

لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم]. وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر]. وقال الله تعالىٰ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة].

عن عُبيد بن خالد السُّلمي ﷺ قال: آخىٰ رسول الله ﷺ بين رجلين: فقُتل أحدهما، ومات الآخر بعده بجمعةٍ أو نحوها فصلينا عليه، فقال رسول الله ﷺ: «**وما قلتم؟**» فقلنا: دعونا له، وقلنا: اللَّهمَّ اغفر له وألحقه بصاحبه، فقال رسول الله ﷺ: «**فأين صلاته بعد صلاته، وصومه بعد صومه، وعمله بعد عمله؟**» شك شعبةُ في صومه وعمله بعد عمله، «**إن بينهما كما بين السماء والأرض**» [رواه أبو داود ٢٥٢٤، وصححه الألباني ٢٢٠٢، والنسائي ٧٤/٤، وأحمد ٥٠٠/٣].

عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**» قالوا: يا رسول الله! هٰذا ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالمًا؟ قال: «**تأخُذُ فوق يديه**» [البخاري ٢٤٤٤، ومسلم ٢٨٨٨].

(تأخذ فوق يديه): أي تمنعه من الظلم.

عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ: «**أن رجلًا زار أخًا له في قرية أُخرىٰ، فأرصد الله له علىٰ مدرجته ملكًا، فلما أتىٰ عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لي في هٰذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمةٍ تربُّها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله ﷻ، قال: فإني رسول الله إليك، بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه**» [رواه مسلم ٢٥٦٧].

(فأرصد): أي أقعده يرقبه. (علىٰ مدرجته): المدرجة هي الطريق سميت بذلك لأن الناس يدرجون عليه، أي يمضون ويمشون. (تربها): أي تقوم بإصلاحها.

عن عروة رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ خطب عائشة إلىٰ أبي بكر فقال له أبو بكر: إنما أنا أخوك، فقال له: «**أنت أخي في دين الله وكتابه، وهي لي حلالٌ**» [رواه البخاري ٥٠٨١].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ فذكر أحاديث منها: وقال رسول الله ﷺ: «**أنا أولىٰ الناس بعيسىٰ ابن مريم في الأولىٰ والآخرة**» قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: «**الأنبياء إخوةٌ من علات، وأمهاتهم شتىٰ، ودينهم واحد، فليس بيننا نبيٌّ**» [البخاري ٣٤٤٣، ومسلم ٢٣٦٥ واللفظ له].

(أبناء العلات): من كان أبوهم واحدًا وأمهاتهم شتىٰ، والكلام هنا علىٰ التشبيه.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيما امرئ قال لأخيه: يا كافر! فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال؛ وإلا رجعت عليه**» [البخاري ٦١٠٤، ومسلم ٦٠].

(باء بها): التزمها ورجع بها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**تفتح أبواب الجنة يوم الإثنين، ويوم الخميس، فيغفر لكل عبدٍ لا يشرك بالله شيئًا؛ إلا رجلًا كانت بينه وبين أخيه شحناءُ، فيقال: أنظروا هٰذين حتىٰ يصطلحا، انظروا هٰذين حتىٰ يصطلحا، انظروا هٰذين حتىٰ يصطلحا**» [رواه مسلم ٢٥٦٥].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**لا يخطب الرجل علىٰ خِطبة أخيه، ولا يسوم علىٰ سوم أخيه، ولا تنكح المرأة علىٰ عمتها ولا علىٰ خالتها، ولا تسأل المرأة طلاق أختها لتكفئ صحفتها، ولتنكح فإنما لها ما كتب الله لها**» [رواه مسلم ١٤٠٨].

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ثلاثٌ يُصفين لك وُدَّ أخيك: أن تسلم عليه إذا لقيته، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليه» [«آداب العشرة»/ ١٦].

وقال رضي الله عنه: «إذا رزقك الله وُدَّ امرئ مسلم فتمسك به» [«المنتقىٰ من مكارم الأخلاق»/ ١٥٩].

عن شعبة رضي الله عنه قال: «خرج عبد الله بن مسعود علىٰ أصحابه فقال: أنتم جلاءُ حُزني» [ابن أبي الدنيا في كتاب «الإخوان»/ ١٥٠].

عن عكرمة رضي الله عنه قال: «قال الله تعالىٰ ليوسف: يا يوسف! بعفوك عن إخوتك رفعت ذكرك في الذاكرين» [«المنتقىٰ من مكارم الأخلاق»/ ٨٥].

قال لقمان لابنه: «أي بُنيَّ! واصل أقرباءك، وأكرم إخوانك وليكن إخوانك من إذا فارقتهم وفارقوك لم تُعَبْ بهم» [«كتاب الإخوان»/ ١٢٨].

وقال أيضًا: «يا بنيَّ! من لا يملك لسانه يندم، ومن يُكثر المراء يُشتم، ومن يصاحب صاحب السوء لا يَسْلَمْ، ومن يصاحب الصالح يَغْنَمْ» [«المنتقىٰ من مكارم الأخلاق»/ ٢٠٢].

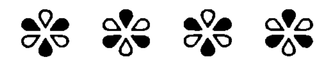
وقال لابنه أيضًا: «يا بنيَّ! لا تَعْدُ بعد تقوىٰ الله من أن تتخذ صاحبًا صالحًا» [«كتاب الإخوان»/ ١١٠].

قال رجل لداود الطائي: أوصني، قال: «اصحب أهل التقوىٰ فإنهم أيسر أهل الدنيا عليك مؤونة، وأكثرهم لك معونةً» [«كتاب الإخوان»/ ١٢٤].

سئل بعض الحكماء: أي الكنوز خيرٌ؟ قال: «أما بعد، تقوىٰ الله فالأخ الصالح» [«كتاب الإخوان»/ ١٣٣].

قال ابن المبارك: «من استخف بالعلماء ذهبت آخرته، ومن استخف بالأمراء ذهبت دُنياه، ومن استخف بالإخوان ذهبت مروءته» [«آداب العشرة»/ ١٨].

ومن أمثالهم: «رُبَّ أخٍ لك لم تلده أمك» [«الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام»/ ١٧٥].



فقه الدعوة

● الرب تعالىٰ يدعو عباده في القرآن إلىٰ معرفته من طريقين:

أحدهما: النظر في مفعولاته.

والثاني: التفكر في آياته وتدبرها.

فتلك آياته المشهودة، وهٰذه آياته المسموعة والمعقولة.

● الوصول إلىٰ المطلوب موقوف علىٰ هجر العوائد وقطع العوائق، ورفض العلائق.

فالعوائد: السكون إلىٰ الدعة والراحة وما ألفه الناس واعتادوه من الرسوم والأوضاع التي جعلوها بمنزلة الشرع المتبع.

أما **العوائق**: فهي أنواع المخالفات ظاهرها وباطنها، فإنها تعوق القلب عن سيره إلىٰ الله، وتقطع عليه طريقه.

أما **العلائق**: فهي كل ما تعلق به القلب دون الله ورسوله ﷺ من ملاذ الدنيا وشهواتها ورياستها، وصحبة الناس والتعلق بهم.

● الناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حط عن رحالهم إلا في الجنة أو النار، والعاقل يعلم أن السفر مبني علىٰ المشقة وركوب الأخطار، ومن المحال عادة أن يُطلب فيه نعيم ولذة وراحة، إنما ذلك بعد انتهاء السفر، ومن المعلوم أن كل وطأة قدم أو كل آن من آنات السفر غير واقفة، ولا المكلف واقف وقد ثبت أن مسافر علىٰ الحال التي يجب أن يكون المسافر عليها من تهيئة الزاد الموصل، وإذا نزل أو نام أو استراح فعلىٰ قدم الاستعداد للسير.

* * *

«التعليق»

الدعوة إلىٰ الله: هو طريق الأنبياء والصالحين وسلوك مسالكهم، ودلالة الناس علىٰ الخير وهدايتهم، ونشر الفضائل ومحاربة الرذائل، وبها يتقرب العبد من ربه وينال رضاه ومحبته، ويحصل له الفوز بالجنة والنجاة من النار.

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هي دعوة الناس إلىٰ الله بالقول والعمل» [«تفسير الطبري» ١١/٥٣].

وقال الدكتور عبد الكريم زيدان: «تبليغ الدعوة إلىٰ الله يكون بالقول وبالفعل وبسيرة الداعي التي تجعله قدوةً حسنةً لغيره فتجذبهم إلىٰ الإسلام» [«أصول الدعوة»/ ٤٧٠].

قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾ [الرعد]. وقال الله تعالىٰ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [القصص]. وقال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت]. وقال الله تعالىٰ: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف]. وقال الله تعالىٰ: ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾ [غافر]. وقال الله تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾ [نوح].

عن عبد الله بن عمرو ﵄؛ أن النبي ﷺ قال: «**بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**» [البخاري ٣٤٦١].

عن أبي هريرة ﵁؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**من دعا إلىٰ الهُدىٰ كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلىٰ ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا**» [رواه مسلم ٢٦٧٤].

عن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن مسعود يُحدث عن أبيه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**نضر الله امرأً سمع منا شيئًا فبلغه كما سمع فربَّ مبلغ أوعىٰ من سامع**» [رواه الترمذي ٢٦٥٧، وقال الألباني: صحيح ٢١٤٠، وأخرجه ابن ماجه ٢٣٢].

عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ لعمه: «**قل: لا إلٰه إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة**» قال: لولا أن تُعيِّرني قريش، يقولون: إنما حمله علىٰ ذلك الجزع لأقررت بها عينك، فأنزل الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البخاري ٤٧٧٢، ومسلم ٢٥].

عن أنس بن مالك ﵁ قال: خطب أبو طلحة أم سُليم، فقالت: «والله ما مثلك يا أبا طلحة يُردُّ، ولكنك رجل كافر، وأنا امرأةٌ مسلمةٌ، ولا يحل لي أن أتزوجك، فإن تُسلم فذاك مهري، وما أسألك غيره، فَأَسْلَمْ، فكان ذلك مهرها» [النسائي ٥/١١٤، وصححه الألباني ٣١٣٣].

عن الحسن البصري ﵀ أنه تلا هٰذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت] فقال: هٰذا حبيب الله، هٰذا ولي الله، هٰذا صفوة الله، هٰذا خيرةُ الله، هٰذا أحب أهل الأرض إلىٰ الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلىٰ ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحًا في إجابته، وقال: إنني من المسلمين هٰذا خليفة الله» [«الدر المنثور» ٧/٣٥٢].

عن ابن شهاب قال: لما بايع أهل العَقَبَةِ رسول الله ﷺ فرجعوا إلىٰ قومهم، فدعوهم سِرًّا، وأخبروهم برسول الله ﷺ والذي بعثه الله به، وتلوا عليهم القرآن، ثم بعثوا إلىٰ رسول الله ﷺ معاذ ابن عفراء، ورافع بن مالك،

أن ابعث إلينا رجلًا من قبلك، فليدع الناس بكتاب الله، فإنه قمنٌ - أي حقيقٌ - أن يُتبع، فبعث إليهم رسول الله ﷺ مصعب بن عُمير أخا بني عبد الدَّار، فلم يزل عندهم يدعو آمنًا، ويهديهم الله علىٰ يديه، حتىٰ قل دارٌ من دور الأنصار إلا وقد أسلم أشرافهم، وأسلم عمرو بن الجموح، وكسرت أصنامهم وكان المسلمون أعز أهل المدينة» [انظر: «حلية الأولياء» ١/١٠٧].

قال أحد السلف في خطبته التي ذكرها ابن وَضَّاح في كتاب «الحوادث والبدع» له: «الحمد لله الذي امتن علىٰ العباد بأن جعل في كل زمان فترة من الرسل، بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلىٰ الهدىٰ، ويصبرون علىٰ الأذىٰ، ويبصرون بكتاب الله أهل العمىٰ، كم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وضالٍّ قد هدوه بذلوا دماءهم وأموالهم دون هلكة العباد، فما أحسن أثرهم علىٰ الناس، وما أقبح أثر الناس عليهم، يغلبونهم في سالف الدَّهر، وإلىٰ يومنا هٰذا، فما نسيهم ربك، وما كان ربك نسيًا، جعل قصصهم هُدىٰ، وأخبر عن حسن مقالتهم فلا تقصُرْ عنهم، فإنهم في منزلة رفيعة وإن أصابتهم الوضيعة» [«التفسير القيم» لابن القيم/٤٣١].

❀ ❀ ❀ ❀

أسباب الهداية

● قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام]. وقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النساء: ١١٥].

والله تعالىٰ قد بيّن في كتابه سبيل المؤمنين مفصلة، وسبيل المجرمين مفصلة، وعاقبة هؤلاء مفصلة، وعاقبة هؤلاء مفصلة، وأعمال هؤلاء وأعمال هؤلاء، وأولياء هؤلاء وأولياء هؤلاء، وخذلانه لهؤلاء، وتوفيقه لهؤلاء، والأسباب التي وفق بها هؤلاء، والأسباب التي خذل بها هؤلاء، وجلا سبحانه الأمرين في كتابه وكشفهما وأوضحهما، وبيّنهما غاية البيان، حتىٰ شاهدتهما البصائر كمشاهدة الأبصار للضياء والظلام.

● فالعالمون بالله وكتابه ودينه عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية، وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية، فاستبان لهم السبيلان، كما يستبين للسالك الطريق الموصل إلىٰ مقصوده، والطريق الموصل إلىٰ الهلكة.

فهؤلاء أعلم الخلق وأنفعهم للناس، وأنصحهم لهم، وهم الأدلاء الهداة، وبذلك برز الصحابة علىٰ جميع من أتىٰ بعدهم إلىٰ يوم القيامة، فإنهم نشأوا في سبيل الضلال والكفر والشرك والسبل الموصلة إلىٰ الهلاك، وعرفوها مفصلة، ثم جاءهم الرسول فأخرجهم من تلك الظلمات إلىٰ سبيل الهدىٰ وصراط الله المستقيم، فخرجوا من الظلمة الشديدة إلىٰ النور التام، ومن الشرك إلىٰ التوحيد، ومن الجهل إلىٰ العلم، ومن الغي إلىٰ الرشاد، ومن الظلم إلىٰ العدل ومن الحيرة والعمىٰ إلىٰ الهدىٰ والبصائر، فعرفوا مقدار ما نالوه وظفروا به، ومقدار ما كانوا فيه، فإن الضد يظهر حسنه الضد، وإنما تتبين الأشياء بأضدادها فازدادوا رغبة ومحبة فيما انتقلوا إليه، ونفرة وبغضًا

لما انتقلوا عنه، وكانوا أحب الناس في التوحيد والإيمان والإسلام، وأبغض الناس في ضده عالمين بالسبيل علىٰ التفصيل.

● خلق بدن ابن آدم من الأرض، وروحه من ملكوت السماء، وقرن بينهما، فإذا أجاع بدنه وأسهره، وأقامه في الخدمة وجدت روحه خفة وراحة، فتاقت إلىٰ الموضع الذي خلقت منه واشتاقت إلىٰ عالمها العلوي، وإذا أشبعه ونعمه ونومه، واشتغل بخدمته وراحته، أخلد البدن إلىٰ الموضع الذي خلق منه، فانجذبت الروح معه فصارت في السجن، فلولا أنها ألفت السجن لاستغاثت من ألم مفارقتها وانقطاعها عن عالمها الذي خلقت منه كما يستغيث المعذَّب.

وبالجملة: فكلما خف البدن لطفت الروح وخفت وطلبت عالمها العلوي، وكلما ثقل وأخلد إلىٰ الشهوات والراحة ثقلت الروح، وهبطت من عالمها وصارت أرضية سلفية، فترىٰ الرجل روحه في الرفيق الأعلىٰ وبدنه عندك، فيكون نائمًا علىٰ فراشه وروحه عند سدرة المنتهىٰ تجول حول العرش، وآخر واقف في الخدمة ببدنه وروحه في السفل تجول حول السفليات.



«التعليق»

الهداية: من أكبر نعم الله تعالىٰ علىٰ العبد أن يهديه الله سبيل الرشاد، وأساس الهدىٰ التوحيد، ومعرفة أسماء الله وصفاته، وإخلاص العبادة له، وهو طريق الموصل إلىٰ رضوان الله ورحمته.

قال الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الهداية الدلالة علىٰ ما يوصل إلىٰ المطلوب» [«التعريفات»/٢٧٧].

وقال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الهادي: هو الذي هَدَىٰ خلقه إلىٰ معرفته وربوبيته وهو الذي هدىٰ عباده إلىٰ صراطه المستقيم» [«الأسماء الحسنىٰ»/٦٤].

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة]. وقال الله تعالىٰ: ﴿هَـٰذَا بَيَانٌ

لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ [سبأ]. وقال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر]. وقال الله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الجاثية]. وقال الله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النساء]. وقال الله تعالىٰ: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد]. وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [الحج]. وقال الله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران].

عن عبد الله بن عباس ﵄؛ أن النبي ﷺ قال: «**إن الهَدْيَ الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد، جُزءٌ من خمسة وعشرين جُزءًا من النبوة**» [أبو داود ٤٧٧٦، وصححه الألباني ٣٩٩٦].

عن علي ﵁ قال: بعثني رسول الله ﷺ إلىٰ اليمن قاضيًا، فقلت: يا رسول الله! ترسلني وأنا حديث السِّنِّ ولا علم لي بالقضاء؟ فقال: «**إن الله سيهدي قلبك، ويثبت لسانك، فإذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضينَّ حتىٰ تسمع من الآخر كما سمعت من الأول، فإنه أحرىٰ أن يتبين لك القضاء**» قال: «فما زلت قاضيًا، أو ما شككت في قضاء بعد» [رواه أبو داود ٣/٣٥٨٢، وقال الألباني في «صحيح أبي داود» ٢/٦٨٤: حسن، وأحمد ١/١٣٦].

عن أبي هريرة ﵁، عن النبي ﷺ قال: «**إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله، وليقل له أخوه ـ** أو صاحبه: ـ **يرحمك الله، فإذا قال: يرحمك الله، فليقل: يهديكم الله ويصلح بالكم**» [رواه البخاري ٦٢٢٤].

قال ابن مسعود ﵁: «كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدىٰ، أحلاس

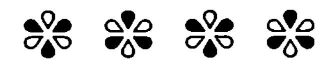
البيوت، سُرُج الليل، جُدُدَ القلوب، خلقان الثياب تعرفون في السماء، وتخفون علىٰ أهل الأرض» [«الفوائد»/٢٠٣].

(أحلاس): ملازمين بيوتكم.

وقال أيضًا: «لا يكن أحدكم أمعة، قالوا: وما الأمعة؟ قال: يقول: أنا مع الناس، إن اهتدوا اهتديت، وإن ضلوا ضللتُ، ألا ليُوَطَننَّ أحدكم نفسه علىٰ أنه إن كفر الناس لا يكفر» [«الفوائد»/٢٠٤].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والعبد مضطر دائمًا إلىٰ أن يهديه الله الصراط المستقيم، فهو مضطر إلىٰ مقصود هٰذا الدعاء، فإنه لا نجاة من العذاب ولا وصول إلىٰ السعادة إلا بهٰذه الهداية، وهٰذا الهدىٰ لا يحصل إلا بِهُدىٰ الله» [«الفتاوىٰ»/١٤/٣٧].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن العبد إذا آمن بالكتاب واهتدىٰ به مُجملًا وقبل أوامره، وصدق بأخباره، كان ذلك سببًا لهداية أخرىٰ تحصل له علىٰ التفصيل، فإن الهداية لا نهاية لها ولو بلغ العبد فيها ما بلغ ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦] [«تنوير الحوالك» ١/١٧٧].



فوائد تنفع كخطب منبرية

● لما خرج رسول الله ﷺ من حصر العدو دخل في حصر النصر، فبعثت أيدي سراياه بالنصر في الأطراف، فطار ذكره في الآفاق، فصار الخلق معه ثلاثة أقسام: مؤمن به، ومسالم له، وخائف منه.

ألقىٰ بذر الصبر في مزرعة: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

فإذا أغصان النبات تهتز بخزامىٰ: ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤].

فدخل مكة دخولًا ما دخله أحد قبله ولا بعده، حَوْله المهاجرون والأنصار، لا يبين منهم إلا الحدق، والصحابة علىٰ مراتبهم، والملائكة فوق رؤوسهم، وجبريل يتردد بينه وبين ربه، وقد أباح له حَرَمه الذي لم يحله لأحد سواه.

● فلما قايس بين هٰذا اليوم وبين يوم: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. فأخرجوه ثاني اثنين، دخل وذقنه تمس قربوس سَرْجه خضوعًا وذلًا لمن ألبسه ثوب هٰذا العز الذي رفعت إليه فيه الخليقة رؤوسها ومدت إليه الملوك أعناقها.

فدخل مكة مالكًا مؤيدًا منصورًا، وعلا كعب بلال فوق الكعبة بعد أن كان يُجَر في الرمضاء علىٰ جمر الفتنة، فنشر بزًا طوىٰ عن القوم من يوم قوله: «أحد أحد».

(البزّ): نوع من الثياب.

ورفع صوته بالأذان، فأجابته القبائل من كل ناحية، فأقبلوا يؤمون الصوت، فدخلوا في دين الله أفواجًا، وكانوا قبل ذلك يأتون آحادًا.

فلما جلس الرسول ﷺ علىٰ منبر العز ـ وما نزل عنه قط ـ مدت الملوك أعناقها بالخضوع إليه، فمنهم من سلّم إليه مفاتيح البلاد، ومنهم من سأله

الموادعة والصلح، ومنهم من أقر بالجزية والصَّغار، ومنهم من أخذ في الجمع والتأهب للحرب، ولم يدر أنه لم يزد علىٰ جمع الغنائم وسوق الأسارىٰ إليه ﷺ.

فلما تكامل نصره وبلَّغ الرسالة، وأدىٰ الأمانة، وجاءه منشور: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ [الفتح].

وبعده توقيع: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾ [النصر].

جاءه رسول ربه يُخيره بين المقام في الدنيا وبين لقائه، فاختار لقاء ربه شوقًا إليه، فتزينت الجنان ليوم قدوم روحه الكريمة، لا كزينة المدينة يوم قدوم الملك.

إذا كان عرش الرحمٰن قد اهتز لموت بعض أتباعه فرحًا واستبشارًا بقدوم روحه، فكيف بقدوم روح سيد الخلائق؟!

فيا منتسبًا إلىٰ غير هٰذا الجناب، ويا واقفًا بغير هٰذا الباب، ستعلم يوم الحشر، أي سريرة تكون عليها: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩﴾ [الطارق].

❋ ❋ ❋

«التعليق»

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝١٥١ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١٥٢ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٥٣﴾ [الأنعام].

عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: «صلَّىٰ بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائلٌ: يا رسول الله! كأنَّ هٰذه موعظة مودِّع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: «**أوصيكم بتقوىٰ الله والسمع والطاعة وإن عبدًا حبشيًا، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها، وعضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعةٌ، وكل بدعةٍ ضلالةٌ**»» [أبو داود ٤٦٠٧، والترمذي ٢٦٧٦، وقال الألباني: صحيح ٣/٨٧١].

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمَّرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، حتىٰ كأنه منذر جيش، يقول: صبحكم ومساكم، ويقول: «**بُعثت أنا والساعة كهاتين**» ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطىٰ، ويقول: «**أما بعد: فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهُدىٰ هُدىٰ محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة**» ثم يقول: «**أنا أولىٰ بكل مؤمن من نفسه، من ترك مالًا فلأهله ومن ترك دينًا أو ضياعًا فإليَّ وعليَّ**» [مسلم ٨٦٧].

(كهاتين): قال القاضي: يحتمل أنه تمثيل لمقاربتها، كما أنه لا نبي بينه وبين الساعة. (ومن ترك دينًا أو ضياعًا فإليَّ وعليَّ): والمراد من ترك أطفالًا وعيالًا ذوي ضياع.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «لقد تركنا محمدٌ ﷺ وما يُحَرِّكُ طائرٌ جناحيه في السماء إلا أذكرنا منه علمًا» [رواه أحمد ٥/١٥٣، ١٦٢].

قال: فقال ﷺ: «**ما بقي من شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بيّن لكم**» [انظر: «السلسلة الصحيحة» ١٨٠٣].

عن الشافعي رحمه الله تعالى قال في قوله تعالىٰ: «﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر] لو تدبَّر الناس هٰذه السورة لوسعتهم» [«تفسير ابن كثير»/ ٤/٥٨٥].

سأل بعضهم شيخ الإسلام ابن تيمية أن يُوصيهُ بما فيه صلاح دينه ودنياه فأجاب رحمه الله: «أما الوصية فيما أعلم وصيَّة أنفع من وصية الله ورسوله لمن

عقلها واتَّبعها، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١] ووصىٰ النبي ﷺ معاذًا لما بعثه إلىٰ اليمن فقال: «**اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسنٍ**» [«صحيح الجامع الصغير»/٩٧].

فهٰذه وصية جامعة لمن عقلها، مع أنها تفسيرٌ للوصية القرآنية، أما بيان جمعها فلأن العبد عليه حقان: حق الله ﷻ، وحق لعباده، ثم الحق الذي عليه لا بد أن يُخلَّ ببعضه أحيانًا، إما بترك المأمور به أو فعل المنهي عنه، وفي قوله ﷺ: «**اتق الله حيثما كنت**» تحقيقٌ لحاجته إلىٰ التقوىٰ في السر والعلانية (وفي كل زمان ومكان حيث يراك الناس أو لا يرونك) ثم قال: «**واتبع السيئة الحسنة تمحها**» لأنه كما كان الذنبُ للعبد كأنه أمرٌ حتمٌ كان الكيس هو الذي لا يزال يأتي من الحسنات ما يمحو به السيئات، وفي هٰذا إرشاد للخاصة والعامة بما يُخلِّص النفوس من ورطات الذنوب وهو اتباع السيئات الحسنات، ولما قضىٰ الرسول ﷺ بهاتين الكلمتين حق الله من عمل الصالح وإصلاح الفاسد، قال: «**وخالق الناس بخلق حسن**» وهو حق الناس، وأما بيان أن هٰذا كله في وصية الله فهو أن اسم تقوىٰ الله يجمع فعل كل ما أمر به الله به إيجابًا واستحبابًا وما نهىٰ عنه تحريمًا وتنزيهًا، وهٰذا يجمع حقوق الله وحقوق العباد» [انظر: «الفتاوى» ١٠/٦٥٣ ـ ٦٥٤ وبتصرف يسير].

قال ابن كثير في قوله تعالىٰ: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الأنعام: ٧٠]، أي: ذكر الناس بهٰذا القرآن وحذِّرهم نعمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة» [«تفسير ابن كثير» ٧/١٤٩].

❀ ❀ ❀ ❀

شمول سورة الفاتحة على أسباب فلاح الإنسان

● للإنسان قوتان: قوة علمية نظرية، وقوة عملية إرادية، وسعادته التامة موقوفة علىٰ استكمال قوتيه العلمية والإرادية واستكمال القوة العلمية إنما يكون بمعرفة فاطره وبارئه، ومعرفة أسمائه وصفاته، ومعرفة الطريق التي توصل إليه ومعرفة آفاتها، ومعرفة نفسه، ومعرفة عيوبها. فبهٰذه المعارف الخمسة يحصل كمال قوته العلمية، وأعلم الناس أعرفهم بها، وأفقههم فيها.

واستكمال القوة العملية الإرادية لا يحصل إلا بمراعاة حقوقه سبحانه علىٰ العبد، والقيام بها إخلاصًا، وصدقًا ونصحًا، وإحسانًا، ومتابعة، وشهودًا لمنّته عليه وتقصيره هو في أداء حقه، فهو مستحي من مواجهته بتلك الخدمة لعلمه أنها دون ما يستحقه عليه، ودون دون ذلك، وأنه لا سبيل له إلىٰ استكمال هاتين القوتين إلا بمعونته، فهو مضطر إلىٰ أن يهديه الصراط المستقيم الذي هدىٰ إليه أولياءه وخاصته، وأن يجنبه الخروج عن ذلك الصراط، إما بفساد في قوته العلمية فيقع في الضلال، وإما في قوته العملية فيوجب له الغضب.

فكمال الإنسان وسعادته لا تتم إلا بمجموع هٰذه الأمور وقد تضمنتها سورة الفاتحة وانتظمتها أكمل انتظام، فإن قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة] يتضمن الأصل الأول، وهو: معرفة الرب تعالىٰ، ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله، والأسماء المذكورة في هٰذه السورة هي أصول الأسماء الحسنىٰ، وهي اسم: «الله، والرب، والرحمٰن»، فاسم «الله» متضمن لصفات الألوهية، واسم «الرب» متضمن لصفات الربوبية، واسم «الرحمٰن» متضمن لصفات الإحسان والجود والبر، ومعاني أسمائه تدور علىٰ هٰذا.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ يتضمن معرفة الطريق الموصلة إليه، وأنها ليست إلا عبادته وحده بما يحبه ويرضاه، واستعانته علىٰ عبادته.

وقوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ يتضمن بيان أن العبد لا سبيل له إلىٰ سعادته إلا باستقامته علىٰ الصراط المستقيم، وأنه لا سبيل له إلىٰ الاستقامة إلا بهداية ربه له، كما لا سبيل له إلىٰ عبادته إلا بمعونته، فلا سبيل له إلىٰ الاستقامة علىٰ الصراط إلا بهدايته.

وقوله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ يتضمن بيان طرفي الانحراف عن الصراط المستقيم، وأن الانحراف إلىٰ أحد الطرفين انحراف إلىٰ الضلال الذي هو فساد العلم والاعتقاد، والانحراف إلىٰ الطرف الآخر انحراف إلىٰ الغضب الذي سببه فساد القصد والعمل.

فأول السورة رحمة، وأوسطها هداية، وآخرها نعمة، وحظ العبد من النعمة علىٰ قدر حظه من الهداية، وحظه منها علىٰ قدر حظه من الرحمة، فعاد الأمر كله إلىٰ نعمته ورحمته، والنعمة والرحمة من لوازم ربوبيته فلا يكون إلا رحيمًا منعمًا، وذلك من موجبات إلٰهيته، فهو الإلٰه الحق، وإن جحده الجاحدون وعدل به المشركون، فمن تحقق بمعاني الفاتحة علمًا ومعرفة وعملًا، وحالًا فقد فاز من كماله بأوفر نصيب، وصارت عبوديته عبودية الخاصة الذين ارتفعت درجتهم عن عوام المتعبدين، والله المستعان.

❁ ❁ ❁

«التعليق»

سورة الفاتحة: هي أعظم سورة في القرآن الكريم، ولا تجزي الصلاة دون قراءتها، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**من صلىٰ صلاةً ثم لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج ثلاثًا غير تام**».

فقيل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام، فقال: اقرأ بها في نفسك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تعالىٰ: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي**

نصفين ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قال الله تعالىٰ: **حمدني عبدي وإذا قال**: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ **قال: مجدني عبدي** ـ قال مرة: **فوض إليَّ عبدي ـ فإذا قال**: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ **قال: هٰذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال**: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ **قال: هٰذا لعبدي ولعبدي ما سأل**» [رواه مسلم ٣٩٥، والترمذي ٢٩٥٣، والنسائي ٩٠٩، وأبو داود ٨٢١، وابن ماجه ٨٣٨، وأحمد ٩٩٤٦، ومالك ١٨٩].

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإذا تأمل العبد هٰذا، وعلم أنها نصفان: نصف لله، ونصف للعبد وتأمل أن الذي علمه هٰذا هو الله، وأمر أن يدعو به ويكرره في كل ركعة، وأنه سبحانه ضمن إجابة هٰذا الدعاء ـ إذا دعاه بإخلاص وحضور القلب ـ تبيَّن له ما أضاع أكثر الناس» [«تفسير سورة الفاتحة»/٨].

عن أبي سعيد المُعلىٰ قال: كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فقال: «**ألم يقل الله** ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾»، ثم قال لي: «**لأعلمنَّك سورة هي أعظم السُّور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد**»، ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل لأعلمنَّك سورةً هي أعظم سورةٍ في القرآن، قال: «**الحمد لله ربِّ العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته**» [رواه البخاري ٤٤٧٤، وأبو داود ١٤٥٨، والنسائي ٩١٣، وابن ماجه ٣٧٨٥، وأحمد ١٥٣٠٣، والدارمي ١٤٩٢].

عن أُبيٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أنزل الله في التوراة، ولا في الإنجيل، مثل أُم القرآن، وهي السبع المثاني وهي مقسومةٌ بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل**» [رواه الترمذي ٣١٢٥، والنسائي ٩١٤، وهو في «صحيح الجامع» ٥٥٦٠].

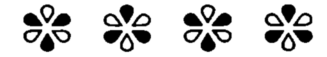
قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أنها مع قصرها تشتمل علىٰ أنواع التوحيد الثلاثة، توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات» [«مدارج السالكين» ١/٢٤].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تأملت أنفع الدعاء، فإذا هو سؤال

العون علىٰ مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾» [«مدارج السالكين» ١/٧٨].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «أفضل الدعاء علىٰ الإطلاق وأنفعه الهداية إلىٰ صراطه المستقيم المتضمن كمال معرفته وتوحيده وعبادته بفعل ما أمر الله، واجتناب ما نهىٰ عنه، والاستقامة عليه إلىٰ الممات مع تضمنها تزكية النفوس، وإصلاح القلوب» [«زاد المعاد»/١٦٢].

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «حري بطلبة العلم أن يحرصوا في كل مناسبة إذا اجتمعوا بالعامة أن يأتوا بآية من كتاب الله يفسرونها لا سيما ما يكثر ترداده علىٰ العامة مثل الفاتحة، فإنك لو سألت عاميًّا بل كثير من الناس عن معنىٰ سورة الفاتحة لم يعرف شيئًا منها».



معنىٰ اللهو واللعب

● قوله تعالىٰ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾.

أخلصت هٰذه السورة للوعد والوعيد والتهديد، وكفىٰ بها موعظة لمن عقلها.

فقوله تعالىٰ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾، أي: شغلكم علىٰ وجه لا تعذرون فيه، فإن الإلهاء عن الشيء هو الاشتغال عنه، فإن كان بقصد فهو محل التكليف، وإن كان بغير قصد كقوله ﷺ في الخميصة: «**إنها ألهتني عن صلاتي**» [البخاري ٣٧٣] كان صاحبه معذورًا وهو نوع من النسيان.

وفي الحديث: «**فلها ﷺ عن الصبي...**»، أي: ذهل عنه، ويقال: لها بالشيء، أي: اشتغل به، ولها عنه: إذا انصرف عنه، واللهو للقلب، واللعب للجوارح، ولهٰذا يجمع بينهما، ولهٰذا كان قوله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ أبلغ في الذم من «شغلكم» فإن العامل قد يستعمل جوارحه بما يعمل، وقلبه غير لاه به، فاللهو هو ذهول وإعراض، والتكاثر تفاعل من الكثرة، أي: مكاثرة بعضكم لبعض، وأعرض عن ذكر المتكاثر به، إرادة لإطلاقه وعمومه، وأن كل ما يكاثر به العبد غيره، سوىٰ طاعة الله ورسوله ﷺ وما يعود عليه بنفع معاده، فهو داخل في هٰذا التكاثر، فالتكاثر في كل شيء من مال، أو جاه، أو رياسة أو نسوة أو حديث، أو علم ولا سيما إذا لم يحتج إليه، والتكاثر في الكتب والتصانيف وكثرة المسائل وتفريعها وتوليدها، والتكاثر أن يطلب الرجل أن يكون أكثر من غيره، وهٰذا مذموم إلا فيما يقرب إلىٰ الله، فالتكاثر فيه منافسة في الخيرات ومسابقة إليها.

وفي «صحيح مسلم» من حديث عبد الله بن الشخير أنه انتهىٰ إلىٰ النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾، قال: «**يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت**» [مسلم ٢٢٧٣].

❋ ❋ ❋

«التعليق»

اللهو واللعب: يؤدي إلىٰ قطع الصلة بين العبد وبين ربه، ويجره إلىٰ الباطل ويزينه، ويبعده عن ذكر الله، ويضيِّع الوقت والأموال بلا فائدة، ويصرفه عن الطاعات وفعل الخيرات، وهو حبائل الشيطان ومكائده، ويذهب شخصية المرء بين المجتمع ومروءته ويكون حقيرًا منبوذًا في وسطهم.

قال الجرجاني: «اللهو الشيء الذي يتلذذ به الإنسان فيلهيه ثم ينقضي» [«التعريفات»/ ٢٠٤].

وقال المناوي: اللهو: ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه.

وقال الطرطوشي: «أصل اللهو: الترويح عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة» [«التوقيف»/ ٢٩٣، و«المفردات»/ ٤٥٥].

وقال الكفوي: «كل باطل ألهىٰ عن الخير وعما يعني فهو لهو» [«الكليات»/ ٧٧٨].

وقال الجرجاني: «اللعب: فعل الصبيان من غير أن يعقب فائدة» [«التعريفات»/ ٢٠٢].

واللهو واللعب: هو أن يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه ويمارس من الأفعال ما لا فائدة فيه مما لا يقصد به مقصد صحيح شرعًا، ويكون ذلك بالإعراض عن الحق والإقبال علىٰ الباطل.

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [الحجر]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟

إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [الجمعة]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت]. وقال الله تعالىٰ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد]. وقال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف]. وقال الله تعالىٰ: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنبياء]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء].

عن أبي هريرة ﷺ؛ أن رسول الله ﷺ رأىٰ رجلًا يتبعُ حمامةً يلعب بها فقال: «**شيطانٌ يتبع شيطانة**» [«صحيح سنن أبي داود» ٣/٩٣٣، ورواه ابن ماجه ٣٧٦].

عن عبد الله بن عباس ﷺ؛ أن النبي ﷺ قال: «**لا تتخذوا شيئًا فيه الروح غرضًا**» [مسلم ١٩٥٧].

(غرضًا): الغرض الذي يقصد رميه بالسهام قرطاس أو سواه.

عن نافع قال: «سمع ابن عمر مزمارًا، قال: فوضع أصبعيهِ علىٰ أُذنيه ونأىٰ عن الطريق، وقال لي: يا نافع هل تسمع شيئًا؟ قال: فقلت: لا، قال: فرفع أصبعيه من أذنيه، وقال: كنت مع النبي ﷺ فسمع مثل هٰذا، فصنع مثل هٰذا» [أبو داود ٤٩٢٤، وقال الألباني :صحيح ٣/٩٣٠].

عن أبي عامر - أو أبي مالك الأشعري ﷺ؛ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحِر والحرير والخمر والمعازف**» [البخاري ٥٥٩٠].

(الحِر): وهو الفرج والمعنىٰ يستحلون الزنىٰ. (المعازف): قيل الغناء، وقيل: أصوات الملاهي.

عن أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من قعد مقعدًا لم يذكر الله فيه، كانت عليه من الله تِرةٌ، ومن اضطجع مضجعًا لا يذكر الله فيه، كانت عليه من الله تِرةٌ**» [أبو داود ٤٨٥٦، وقال الألباني: حسن صحيح ٩٢٠/٣].

(تِرة): قيل: هي النقص وقيل: التبعة أي الوزر وهو الأرجح.

عن أبي موسىٰ الأشعري ﷺ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**من لعب بالنرد فقد عصىٰ الله ورسوله**» [أبو داود ٤٩٣٨، وحسنه الألباني ٩٣٣/٣، وابن ماجه ٣٧٦٢، وهو في «صحيح الجامع» ٦٥٢٩].

عن معاوية بن بهزٍ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ويلٌ للذي يُحدث فيكذب ليضحك به القوم، ويلٌ له: ويلٌ له!**» [أبو داود ٤٩٩٠، وقال الألباني: حسن ٩٤٢/٣، والترمذي ٢٣١٥].

عن معمر بن راشد قال: «بلغني أن الصبيان قالوا ليحيىٰ بن زكريا: اذهب بنا نلعب، قال: ما للعب خلقتُ، قال: فهو قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ [مريم: ١٢] [«مساوئ الأخلاق» للخرائطي/٢٥٨].

عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ...﴾ [لقمان: ٦] قال: الغناء، والله الذي لا إلـٰه إلا هو، ويرددها ثلاث مرات» [«تنزيه الشريعة»/١٣].

قال مجاهد رحمه الله في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ﴾ قال: «الغناء والمزامير» [«تنزيه الشريعة»/١٥].

قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالىٰ تحقيرًا لأمر الدنيا وتهوينًا لشأنها ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ﴾ [محمد: ٣٦]، أي: حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله ﷻ» [«تفسير ابن كثير» ١٨٢/٤].

❀ ❀ ❀ ❀

من كنوز القرآن الكريم

● القرآن كلام الله، وقد تجلَّىٰ الله فيه لعباده بصفاته. فتارة يتجلَّىٰ في جلباب الهيبة والعظمة والجلال، فتخضع الأعناق، وتنكسر النفوس، وتخشع الأصوات، ويذوب الكبر كما يذوب الملح في الماء.

وتارة يتجلَّىٰ في صفات الجمال والكمال، وهو كمال الأسماء، وجمال الصفات، وجمال الأفعال الدال علىٰ كمال الذات، فيستنفد حبه من قلب العبد قوة الحب كلها، بحسب ما عرفه من صفات جماله ونعوت كماله فيصبح فؤاد عبده فارغًا إلا من محبته، فإذا أراد منه الغير أن يعلق تلك المحبة به أبىٰ قلبه وأحشاؤه ذلك كل الإباء، كما قيل:

يـراد مـن الـقـلـب نـسـيـانـكـم   وتـأبـىٰ الـطـبـاع علـىٰ الـنـاقـل

فتبقىٰ المحبة له طبعًا لا تكلفًا.

وإذا تجلّىٰ بصفات الرحمة والبر واللطف والإحسان، انبعثت قوة الرجاء من العبد وانبسط أمله، وقوي طمعه وسار إلىٰ ربه، وحادىٰ الرجاء يحدو ركاب سيره، وكلما قوي الرجاء جد في العمل، كما أن الباذر كلما قوي طمعه في المغل غلق أرضه بالبذر، وإذا ضعف رجاؤه قصر في البذر.

● وإذا تجلَّىٰ بصفات العدل والانتقام، والغضب، والسخط والعقوبة، انقمعت النفس الأمارة، وبطلت أو ضعفت قواها من الشهوة، والغضب واللهو واللعب والحرص علىٰ المحرمات وانقبضت أعنة رعوناتها، فأحضرت المطية حظها من الخوف والخشية والحذر.

● وإذا تجلّىٰ بصفات الأمر والنهي، والعهد، والوصية، وإرسال الرسل وإنزال الكتب وشرع الشرائع، انبعثت منها قوة الامتثال والتنفيذ لأوامره،

والتبليغ لها، والتواصي بها وذكرها وتذكرها والتصديق بالخبر، والامتثال للطلب، والاجتناب للنهي.

● وإذا تجلَّىٰ بصفات السمع والبصر والعلم انبعثت من العبد قوة الحياء فيستحي من ربه أن يراه علىٰ ما يكره، أو يسمع منه ما يكره، أو يخفي في سريرته ما يمقته عليه فتبقىٰ حركاته وأقواله وخواطره موزونة بميزان الشرع، غير مهملة ولا مرسلة تحت حكم الطبيعة والهوىٰ.

● وإذا تجلَّىٰ بصفات الكفاية والحسب، والقيام بمصالح العباد وسوق أرزاقهم إليهم ودفع المصائب عنهم، ونصره لأوليائه وحمايته لهم، ومعيته الخاصة لهم، انبعثت من العبد قوة التوكل عليه، والتفويض إليه، والرضا به، وبكل ما يجريه علىٰ عبده ويقيمه فيه مما يَرضىٰ به هو سبحانه.

والتوكل معنىٰ يلتئم من علم العبد بكفاية الله وحسن اختياره لعبده، وثقته به، ورضاه بما يفعله به ويختاره له.

● وإذا تجلَّىٰ بصفات العز والكبرياء أعطت نفسه المطمئنة ما وصلت إليه من الذل لعظمته والانكسار لعزته، والخضوع لكبريائه، وخشوع القلب والجوارح له، فتعلوه السكينة والوقار في قلبه ولسانه وجوارحه وسمته، ويذهب طيشه وقوته وحدته.

● وجماع ذلك: أنه سبحانه يتعرف إلىٰ العبد بصفات إلٰهيته تارة، وبصفات ربوبيته تارة، فيوجب له شهود صفات الإلٰهية المحبة الخاصة، والشوق إلىٰ لقائه والأنس والفرح به، والسرور بخدمته، والمنافسة في قربه، والتودد إليه بطاعته، واللهج بذكره، والفرار من الخلق إليه، ويصير هو وحده همه دون ما سواه، ويوجب له شهود صفات الربوبية التوكل عليه والافتقار إليه والاستعانة به، والذل والخضوع والانكسار له.

● وكمال ذلك أن يشهد ربوبيته في إلٰهيته، وإلٰهيته في ربوبيته وحمده في ملكه، وعزه في عفوه، وحكمته في قضائه وقدره، ونعمته في بلائه، وعطاءه في منعه، وبره ولطفه وإحسانه ورحمته في قيوميته، وعدله في انتقامه، وجوده وكرمه في مغفرته وستره وتجاوزه، ويشهد حكمته ونعمته في أمره ونهيه، وعزه في رضاه وغضبه وحلمه في إمهاله، وكرمه في إقباله، وغناه في إعراضه.

● وأنت إذا تدبرت القرآن، وأجرته من التحريف، وأن تقضي عليه بآراء المتكلمين وأفكار المتكلفين، أشهدك ملكًا قيومًا فوق سماواته علىٰ عرشه يدبر أمر عباده يأمر وينهىٰ، ويرسل الرسل، وينزل الكتب، ويرضىٰ ويغضب، ويثيب ويعاقب ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، يرىٰ من فوق سبع ويسمع، ويعلم السر والعلانية، فعّال لما يريد، وموصوف بكل كمال، منزه عن كل عيب، لا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، ليس لعباده من دونه وليٌ ولا شفيع.

● قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [الفرقان].

هٰذا من ألطف خطاب القرآن وأشرف معانيه، وأن المؤمن دائمًا مع الله علىٰ نفسه وهواه وشيطانه وعدو ربه، وهٰذا معنىٰ كونه من حزب الله وجنده وأوليائه، فهو مع الله علىٰ عدوه الداخل فيه والخارج عنه، يحاربهم ويعاديهم ويغضبهم له سبحانه، كما يكون خواص الملك معه علىٰ حرب أعدائه، والبعيدون منه فارغون من ذلك، غير مهتمين به.

والكافر مع شيطانه ونفسه وهواه علىٰ ربه، وعبارات السلف علىٰ هٰذا تدور:

ذكر ابن أبي حاتم عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال: عونًا للشيطان علىٰ ربه بالعداوة والشرك.

وقال ليث عن مجاهد قال: يظاهر الشيطان علىٰ معصية الله يعينه عليها.

وقال زيد بن أسلم: ظهيرًا أي مواليًا، والمعنىٰ: أنه يوالي عدوه علىٰ معصيته والشرك به فيكون مع عدوه معينًا له علىٰ مساخط ربه.

فالمعية الخاصة التي للمؤمن مع ربه وإلٰهه قد صارت لهٰذا الكافر والفاجر مع الشيطان ومع نفسه وهواه وقربانه، ولهٰذا صدر الآية بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الفرقان: ٥٥].

وهٰذه العبادة هي الموالاة والمحبة والرضا بمعبوديهم المتضمنة لمعيتهم الخاصة، فظاهروا أعداء الله علىٰ معاداته ومخالفته ومساخطه بخلاف وليه

سبحانه، فإنه معه علىٰ نفسه وشيطانه وهواه، وهٰذا المعنىٰ من كنوز القرآن لمن فهمه وعقله، وبالله التوفيق.

● قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ [الفرقان].

قال مقاتل: إذا وعظوا بالقرآن لم يقعوا عليه صمًّا لم يسمعوه، وعميانًا لم يبصروه، ولكنهم سمعوا وأبصروا وأيقنوا به.

وقال ابن عباس: لم يكونوا عليها صمًّا وعميانًا، بل كانوا خائفين خاشعين.

وقال الكلبي: يخرون عليها سمعًا وبصرًا.

وقال الفراء: وإذا تلي عليهم القرآن لم يقعدوا علىٰ حالهم الأولىٰ كأنهم لم يسمعوه فذلك الخرور، وسمعت العرب تقول: قعد يشتمني، كقولك: قام يشتمني، وأقبل يشتمني والمعنىٰ علىٰ ما ذكر: لم يصيروا عندها صمًّا وعميانًا.

وقال الزجاج: المعنىٰ: إذا تليت عليهم خروا سجدًا وبكيًّا سامعين ومبصرين كما أمروا به.

وقال ابن قتيبة: أي لم يتغافلوا عنها كأنهم صم لم يسمعوها وعمي لم يروها.

قلت: هاهنا أمران: ذكر الخرور، وتسليط النفي عليه. وهل هو خرور القلب؟ أم خرور البدن للسجود؟ وهل المعنىٰ: لم يكن خرورهم عن صمم وعمه فلهم عليهاخرور بالقلب خضوعًا أو بالبدن سجودًا؟ أو ليس هناك خرور وعبَّر به عن القعود؟!

● إذا أردت الانتفاع بالقرآن، فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك علىٰ لسان رسوله ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق].

وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفًا علىٰ مؤثر مقتضٍ ومحل قابل، وشرط

لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه.

● ولهٰذا كان الصواب: أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع، وأن كمال الرب تعالىٰ وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجبه، وأنه منزه عما يقوله منكروه، كما ينزه كماله عن سائر العيوب والنقائص.

● هجر القرآن أنواع:

أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين، وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم.

والرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به، وكل هٰذا داخل في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان] وإن كان بعض الهجر أهون من بعض.

● وكذلك الحرج الذي في الصدور منه، فإنه تارة يكون حرجًا من إنزاله وكونه حقًّا من عند الله، وتارة يكون من جهة المتكلم به أو كونه مخلوقًا من بعض مخلوقاته ألهم غيره أن يتكلم به، وتارة يكون من جهة كفايته وعدمها وأنه لا يكفي العباد، بل هم محتاجون معه إلىٰ المعقولات والأقيسة أو الآراء أوالسياسات، وتارة يكون من جهة دلالته وما أريد به حقائقه المفهومة منه عند الخطاب، أو أريد به تأويلها وإخراجها عن حقائقها إلىٰ تأويلات مستكرهة مشتركة، وتارة يكون من جهة كون تلك الحقائق وإن كانت مرادة، فهي ثابتة في نفس الأمر، أو أوهم أنها لضرب من المصلحة. فكل هؤلاء في صدورهم حرج من القرآن، وهم يعلمون ذلك من نفوسهم ويجدونه في صدورهم، ولا تجد مبتدعًا في دينه قط؛ إلا وفي قلبه حرج من الآيات التي تخالف بدعته،

كما أنك لا تجد ظالمًا فاجرًا إلا وفي صدره حرج من الآيات التي تحول بينه وبين إرادته، فتدبر هٰذا المعنىٰ ثم ارض لنفسك بما تشاء.

❊ ❊ ❊

«التعليق»

القرآن الكريم: هو هدًىٰ ونور، وشفاء للصدور من الشبهات والعقائد الفاسدة، وأمراض الشهوات، قراءته تجارة رابحة لا خسارة فيها أبدًا، أنزله الله تعالىٰ لنقرأهُ ونتدين به ظاهرًا وباطنًا، صاحب القرآن عاقبته حميدة في الدنيا والآخرة.

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء]. وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر]. وقال الله تعالىٰ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت]. وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الإسراء].

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها**» [رواه الترمذي ٢٩١٤، قال الألباني: حسن صحيح ٢٣٢٩، وأخرجه أبو داود ١٤٦٤].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران**» [أخرجه البخاري ٤٩٣٧، ومسلم ٧٩٨].

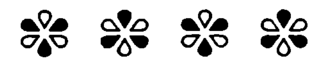
عن عثمان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه**» [البخاري ٥٠٢٧، وابن ماجه ٢١١، وأحمد ٤١٤].

عن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقرؤوا القرآن فإنكم تؤجرون عليه، أما إني لا أقول ﴿الٓمٓ ۝١﴾ حرفٌ، ولكن ألفٌ عشرٌ، ولامٌ عشرٌ، وميمٌ عشرٌ، فتلك ثلاثون**» [«السلسلة الصحيحة» ٦٦٠].

وعن أبي أُمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه، اقرؤوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طيرٍ صوافٍ، تحاجان عن أصحابهما، اقرؤوا سورة البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة**» [«الصحيحة» ٣٩٩٢].

قال ابن القيم رحمه الله في قوله تعالىٰ: «﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٠﴾ [الأنبياء]، وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ [ص: ٢٩]، وهو أحق أن يُسمىٰ مباركًا من كل شيء لكثرة خيره ومنافعه، ووجوه البركة فيه، والرب تعالىٰ يقال في حقه: (تبارك) ولا يقال: (مبارك)» [انظر: «جلاء الأفهام»/٤٣٢].

وقال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: «إن هٰذا الكتاب مبارك أي كثير البركات والخيرات، فمن تعلَّمه وعمل به غمرته الخيرات في الدنيا والآخرة، لأن ما سماه الله مباركًا فهو كثير البركات والخيرات قطعًا» [«العذب النمير» ٢/٨٧١].



معرفة الله تعالىٰ
هي جماع السعادة في الدارين

• قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال].

فتضمنت هٰذه الآية أمورًا:

أحدها: أن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله ﷺ، فمن لم تحصل له هٰذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات.

• فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ﷺ ظاهرًا وباطنًا، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان، ولهٰذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول ﷺ، فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة، فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول ﷺ.

قال مجاهد: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يعني: الحق.

وقال قتادة: هو هٰذا القرآن فيه الحياة والثقة، والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة.

وقال السدي: هو الإسلام، أحياهم به بعد موتهم بالكفر.

وقال ابن إسحاق وعروة بن الزبير: واللفظ له ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، يعني: للحرب التي أعزكم الله بها بعد الذل، وقواكم بعد الضعف، ومنعكم بها من عدوكم بعد القهر منهم لكم.

وكل هٰذه عبارات عن حقيقة واحدة وهي القيام بما جاء به الرسول ﷺ ظاهرًا وباطنًا.

قلت: الجهاد من أعظم ما يحييهم به في الدنيا، وفي البرزخ، وفي الآخرة.

فقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران].

وأما في الآخرة: فإن حظ المجاهدين والشهداء من حياتها ونعيمها أعظم من حظ غيرهم.

ولهٰذا قال ابن قتيبة: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ﴾ يعني: الشهادة.

وقال بعض المفسرين: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ﴾ يعني: الجنة، فإنها دار الحيوان وفيها الحياة الدائمة الطيبة ـ حكاه أبو علي الجرجاني.

والآية تتناول هٰذا كله، فإن الإيمان والإسلام، والقرآن والجهاد تحيي القلوب الحياة الطيبة، وكمال الحياة في الجنة والرسول ﷺ داعٍ إلىٰ الإيمان وإلىٰ الجنة فهو داعٍ إلىٰ الحياة في الدنيا والآخرة.

● والإنسان مضطر إلىٰ نوعين من الحياة:

حياة بدنه التي بها يدرك النافع والضار، ويؤثر ما ينفعه علىٰ ما يضره، ومتىٰ نقصت فيه هٰذه الحياة ناله من الألم والضعف بحسب ذلك، ولذلك كانت حياة المريض والمحزون وصاحب الهم والغم والخوف والفقر والذل دون حياة من هو معافىٰ من ذلك، وحياة قلبه وروحه التي بها يميز بين الحق والباطل والغي والرشاد، والهوىٰ والضلال، فيختار الحق علىٰ ضده، فتفيده هٰذه الحياة قوة التمييز بين النافع والضار في العلوم والإرادات والأعمال، وتفيده قوة الإيمان والإرادة والحب للحق، وقوة البغض والكراهة للباطل.

فشعوره وتمييزه وحبه ونفرته بحسب نصيبه من هٰذه الحياة، كما أن البدن الحي يكون شعوره وإحساسه بالنافع والمؤلم أتم، ويكون ميله إلىٰ النافع ونفرته عن المؤلم أعظم، فهٰذا بحسب حياة البدن، وذاك بحسب حياة

القلب، فإذا بطلت حياته بطل تمييزه، وإن كان له نوع تمييز لم يكن فيه قوة يؤثر بها النافع على الضار.

كما أن الإنسان لا حياة له حتىٰ ينفخ فيه الملك الذي هو رسول الله، من روحه فيصير حيًّا بذلك النفخ، وكان قبل ذلك من جملة الأموات، وكذلك لا حياة لروحه وقلبه حتىٰ ينفخ فيه الرسول ﷺ من الروح الذي ألقىٰ إليه.

قال تعالىٰ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢]. وقال: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]. وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

فأخبر أن وحيه روح ونور، فالحياة والاستنارة موقوفة علىٰ نفخ الرسول الملكي، فمن أصابه نفخ الرسول الملكي، ونفخ الرسول البشري حصلت له الحياتان، ومن حصل له نفخ الملك دون نفخ الرسول، حصلت له إحدىٰ الحياتين وفاتته الأخرىٰ.

● قال تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. فجمع له بين النور والحياة، كما جمع لمن أعرض عن كتابه بين الموت والظلمة.

قال ابن عباس ـ وجميع المفسرين: كان كافرًا ضالًّا فهديناه.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ يتضمن أمورًا:

أحدها: أن يمشي في الناس بالنور وهم في الظلمة، فمثله ومثلهم كمثل قوم أظلم عليهم الليل فضلوا ولم يهتدوا للطريق، وآخر معه نور يمشي به في الطريق ويراها ويرىٰ ما يحذره فيها.

وثانيها: أنه يمشي فيهم بنوره فهم يقتبسون منه لحاجتهم إلىٰ النور.

وثالثها: أنه يمشي فيهم بنوره يوم القيامة علىٰ الصراط إذا بقي أهل الشرك والنفاق في ظلمات شركهم ونفاقهم.

● قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤].

المشهور في الآية أنه يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان، ويحول بين أهل طاعته وبين معصيته، وبين أهل معصيته وبين طاعته وهٰذا قول ابن عباس وجمهور المفسرين.

وفي الآية قول آخر: أن المعنىٰ أنه سبحانه قريب من قلبه لا تخفىٰ عليه خافية، فهو بينه وبين قلبه، ذكره الواحدي عن قتادة.

وكان هٰذا أنسب بالسياق، لأن الاستجابة أصلها بالقلب فلا تنفع الاستجابة بالبدن دون القلب، فإن الله سبحانه بين العبد وبين قلبه، فيعلم هل استجاب له قلبه؟ وهل أضمر ذلك أو أضمر خلافه؟

وعلىٰ القول الأول: فوجه المناسبة أنكم إن تثاقلتم عن الاستجابة وأبطأتم عنها فلا تأمنوا أن الله يحول بينكم وبين قلوبكم، فلا يمكنكم بعد ذلك من الاستجابة عقوبة لكم علىٰ تركها بعد وضوح الحق واستبانته، فيكون كقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]. وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. وقوله: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف: ١٠١].

ففي الآية تحذير من ترك الاستجابة بالقلب وإن استجاب بالجوارح.

وفي الآية سر آخر: وهو أنه جمع لهم بين الشرع والأمر به، وهو الاستجابة، وبين القدر والإيمان به، فهي كقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير]. وقوله: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٥ ـ ٥٦] والله أعلم.

* * *

«التعليق»

معرفة الله تعالىٰ: تورث محبته والإقبال إليه، والخوف منه، وهي أساس الإيمان واليقين، وتجلب السكينة والرضا، والعارفون بالله يهديهم ربهم جلَّ وعلا بمعرفته في صورته يوم القيامة فيتبعونه وذلك هو الفوز العظيم.

قال الجرجاني: «المعرفة إدراك الشيء علىٰ ما هو عليه، وهي مسبوقة

بنسيان حاصلٍ بعد العلم، ولذلك يُسمَّىٰ الحق تعالىٰ بالعالم دون العارف» [«التعريفات»/٣٣٦].

وقال الكفوي: «المعرفة في اصطلاحهم: هي معرفة الله ﷻ بلا كيف ولا تشبيه» [«الكليات»/٨٢٥].

وقال بعضهم: «معرفة الله ﷻ هي ثمرة التوحيد، والمراد بها: معرفته ﷻ بصفاته الواجبة له مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به، معرفة صحيحة ناشئة عن الأدلة اليقينية» [انظر: «توضيح العقيدة المفيدة في علم التوحيد» ٧].

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [البقرة]. وقال الله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [النحل]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النمل]. وقال الله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس]. وقال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ [الرعد]. وقال الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل]. وقال الله تعالىٰ: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم]. وقال الله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [غافر]. وقال الله تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾ [فصلت]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات]. وقال الله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ

كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم أمرهم من الأعمال بما يطيقون، قالوا: إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله! إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيغضب حتىٰ يُعرف الغضبُ في وجهه ثم يقول: «**إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا**» [البخاري ٢٠].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أُناسٌ لرسول الله ﷺ: يا رسول الله! هل نرىٰ ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هل تضارُّون في القمر ليلة البدر؟**» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «**فهل تُضارُّون في رؤية الشمس ليس دونها سحابٌ؟**» قالوا: لا، قال: «**فإنكم ترونه كذلك، يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبدُ شيئًا فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمسَ الشمسَ، ويتبع من كان يعبد القمرَ القمرَ، ويتبع من كان يعبد الطواغيتَ الطواغيتَ، وتبقىٰ هٰذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله تبارك وتعالىٰ في صورة غير صورته التي يعرفون فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هٰذا مكاننا حتىٰ يأتينا رَبُّنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا فيتبعونه...**» الحديث [البخاري ٨٠٦، ومسلم ٢٩٩].

قال البخاري رحمه الله: وباب قول النبي ﷺ: «**أنا أعلمكم بالله**» وأن المعرفة فعل القلب لقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥] [الفتح ١/٨٨].

قال الغزالي رحمه الله: «أخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه، ولذلك قال ﷺ: «**أنا أخوفكم لله**» وكذلك قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ ثم إذا كملت المعرفة أورثت جلال الخوف واحتراق القلب» [إحياء علوم الدين ٤/١٦٤].

وقال أيضًا: «من عرف الله تعالىٰ عرف أنه يفعل ما يشاء ولا يبالي، ويحكم ما يريد ولا يخاف» [المرجع السابق ٤/١٧٧].

قال بعضهم: «من أمارات المعرفة بالله حصول الهيبة، فمن ازدادت معرفته

زادت هيبتهُ، وقال أيضًا: المعرفة توجب السكينة، وقيل: علامتها أن يُحِسَّ بقرب قلبه من الله فيجده قريبًا منه» [بصائر ذوي التمييز ٢٥/٤].

قال الشبليُّ: «ليس لعارف علاقة، ولا لمحب شكوىٰ، ولا لعبد دعوىٰ، ولا لخائف قرارٌ، ولا لأحدٍ من الله فرارٌ» [المرجع السابق ٢٥/٤].

قال الفيروزآبادي تعليقًا علىٰ كلام الشبلي في الأثر السابق: «وهٰذا كلام جيدٌ، فإن المعرفة الصحيحة تقطع من القلب العلائق كلها، وتعلقه بمعروفه فلا يبقىٰ فيه علاقةٌ لغيره ولا تمر به العلائق إلا وهي مجتازة» [المرجع السابق ٢٥/٤].

وقال هرم بن حيان: «المؤمن إذا عرف ربه ﷻ أحبه، وإذا أحبه أقبل إليه» [الإحياء ٣١٣/٤].

قال الحسن البصري رحمه الله تعالىٰ: «من عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا زهد فيها، ومن خلا عن الحب هٰذا فلانٌ اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالقه فلم يعرفه حق معرفته وقصر نظره علىٰ شهواته ومحسوساته» [المرجع السابق ٣١٨/٤ ـ ٣١٩].

قال ابن الجوزي: «من ذاق طعم المعرفة وجد طعم المحبة، فالرضا من جملة ثمرات المعرفة، فإذا عرفته سبحانه رضيت بقضائه» [صيد الخاطر/١٠٢].

وقال أيضًا رحمه الله تعالىٰ: «ليس في الدنيا ولا في الآخرة أطيب عيشًا من العارفين بالله تعالىٰ، فإن العارف به مستأنسٌ به في خلوته، فإن عمَّتْ نعمةٌ علم من أهداها، وإن مَرَّ مُرٌّ حَلاَ مذاقهُ في فيه لمعرفته بالمبتلي، وإن سأل فتعوَّق مقصوده، صار مُراده ما جرىٰ به القدر، علمًا منه بالمصلحة، بعد يقينه بالحكمة، وثقته بحسن التدبير» [المرجع السابق/١٥٨].

❀ ❀ ❀ ❀

الإيمان بالقدر خيره وشره

● قوله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة]. وقوله ﷻ: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء].

فالآية **الأولىٰ** في الجهاد الذي هو كمال القوة الغضبية.

والثانية: في النكاح الذي هو كمال القوة الشهوانية. فالعبد يكره مواجهة عدوه بقوته الغضبية خشية علىٰ نفسه منه، وهٰذا المكروه خير له في معاشه ومعاده، ويحب الموادعة والمتاركة، وهٰذا المحبوب شر له في معاشه ومعاده.

وكذلك يكره المرأة لوصف من أوصافها وله في إمساكها خير كثير لا يعرفه، ويحب المرأة لوصف من أوصافها، وله في إمساكها شر كثير لا يعرفه، فالإنسان كما وصفه به خالقه (ظلوم جهول) فلا ينبغي أن يجعل المعيار علىٰ ما يضره وينفعه، ميله وحبه، ونفرته وغضبه، بل المعيار علىٰ ذلك ما اختاره الله له بأمره ونهيه.

● فأنفع الأشياء له علىٰ الإطلاق: طاعة ربه ـ بظاهره وباطنه، وأضر الأشياء عليه علىٰ الإطلاق: معصيته بظاهره وباطنه.

فإذا قام بطاعته وعبوديته، مخلصًا له، فكل ما يجري عليه مما يكرهه يكون خيرًا له، وإذا تخلّىٰ عن طاعته وعبوديته فكل ما هو فيه من محبوب هو شر له. فمن صحت له معرفة ربه والفقه في أسمائه وصفاته، علم يقينًا أن المكروهات التي تصيبه، والمحن التي تنزل به، فيها ضروب من المصالح

والمنافع التي لا يحصيها علمه ولا فكرته، بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب.

● فعامة مصالح النفوس في مكروهاتها، كما أن عامة مضارها وأسباب هلكتها في محبوباتها، فانظر إلىٰ غارس جنة من الجنات، خبير بالفلاحة، غرس جنة وتعاهدها بالسقي والإصلاح حتىٰ أثمرت أشجارها، فأقبل عليها يفصل أوصالها، ويقطع أغصانها لعلمه أنها لو خليت علىٰ حالها لم تطب ثمرتها، فيطعمها من شجرة طيبة الثمرة، حتىٰ إذا التحمت بها واتحدت وأعطت ثمرتها أقبل يقلمها، ويقطع أغصانها الضعيفة التي تذهب قوتها، ويذيقها ألم القطع والحديد لمصلحتها وكمالها، لتصلح ثمرتها أن تكون بحضرة الملوك، ثم لا يدعها ودواعي طبعها من الشراب كل وقت، بل يعطشها وقتًا ويسقيها وقتًا، ولا يترك الماء عليها دائمًا، وإن كان ذلك أنضر لورقها وأسرع لنباتها. ثم يعمد إلىٰ تلك الزينة التي زينت بها من الأوراق فيلقي عنها كثيرًا منها، لأن تلك الزينة تحول بين ثمرتها وبين كمال نضجها واستوائها كما في شجر العنب ونحوه، فهو يقطع أعضاءها بالحديد، ويلقي عنها كثيرًا من زينتها، وذلك عين مصلحتها، فلو أن ذات تمييز وإدراك كالحيوان لتوهمت أن ذلك إفساد لها، وإضرار بها، وإنما هو عين مصلحتها.

وكذلك الأب الشفيق علىٰ ولده، العالِم بمصلحته، إذا رأىٰ مصلحته في إخراج الدم الفاسد عنه، بَضَع جلده، وقَطَع عروقه، وأذاقه الألم الشديد، وإن رأىٰ شفاءه، في قطع عضو من أعضائه أبانه عنه، كل ذلك رحمة به، وشفقة عليه وإن رأىٰ مصلحته في أن يمسك عنه العطاء، ولم يعطه ولم يوسع عليه، لعلمه أن ذلك أكبر الأسباب إلىٰ فساده وهلاكه، وكذلك يمنعه كثيرًا من شهواته حمي له، ومصلحة لا بخلًا عليه.

فأحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، وأعلم العالمين، الذي هو أرحم بعباده منهم بأنفسهم ومن آبائهم وأمهاتهم، إذا أنزل بهم ما يكرهون كان خيرًا لهم من أن لا ينزله بهم نظرًا منه لهم، وإحسانًا إليهم، ولطفًا بهم، ولو مكنوا من الاختيار لأنفسهم لعجزوا عن القيام بمصالحهم، علمًا وإرادة وعملًا، لكنه سبحانه تولىٰ تدبير أمورهم بموجب علمه وحكمته ورحمته، أحبوا أم كرهوا،

فعرف ذلك الموقنون بأسمائه وصفاته، فلم يتهموه في شيء من أحكامه، وخفي ذلك علىٰ الجهال به وبأسمائه وصفاته فنازعوه تدبيره، وقدحوا في حكمته، ولم ينقادوا لحكمه وعارضوا حكمه بعقولهم الفاسدة، وآرائهم الباطلة، وسياستهم الجائرة، فلا لربهم عرفوا ولا لمصالحهم حصلوا، والله الموفق.

● ومتىٰ ظفر العبد بهٰذه المعرفة، سكن في الدنيا قبل الآخرة في جنة لا يشبه نعيمها إلا نعيم جنة الآخرة، فإنه لا يزال راضيًا عن ربه، والرضا جنة الدنيا ومستراح العارفين فإنه طيب النفس بما يجري عليه من المقادير، التي هي عين اختيار الله له وطمأنينتها إلىٰ أحكامه الدينية، وهٰذا هو الرضا بالله ربًا وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا، وما ذاق طعم الإيمان من لم يحصل له ذلك.

وهٰذا الرضا هو بحسب معرفته بعدل الله وحكمته ورحمته وحسن اختياره، كلما كان بذلك أعرف، كان به أرضىٰ فقضاء الرب سبحانه في عبده دائر بين العدل والمصلحة والحكمة والرحمة، لا يخرج عن ذلك البتة.

كما قال ﷺ في الدعاء المشهور: «**اللَّهمَّ! إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي، ما قالها أحد قط إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرجًا**»، قالوا: أفلا نتعلمهن يا رسول الله؟! قال: «**بلىٰ، ينبغي لمن يسمعهن أن يتعلمهن**» [رواه الإمام أحمد، وأبي حاتم، والألباني في «السلسلة الصحيحة» ١٩٩، و«الكلم الطيب» ١٢٣].

● والمقصود قوله: (عدلٌ فيَّ قضاؤك) وهٰذا يتناول كل قضاء يقضيه علىٰ عبده، من عقوبة أو ألم وسبب ذلك فهو الذي قضىٰ بالسبب وقضىٰ بالمسبب وهو عدل في هٰذا القضاء وهٰذا القضاء خير للمؤمن كما قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يقضي الله قضاء إلا كان خيرًا، وليس ذلك إلا للمؤمن**» [مسلم/٦٤، من حديث صهيب ﷺ يرفعه].

قال العلامة ابن القيم: فسألت شيخنا: هل يدخل في ذلك قضاء الذنب؟ فقال: نعم، بشرطه!

فأجمل في لفظة: «بشرطه» ما يترتب علىٰ الذنب من الآثار المحبوبة لله من: التوبة، والانكسار، والندم، والخضوع، والذل، والبكاء وغير ذلك.

● في قوله تعالىٰ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة].

في هٰذه الآية عدة حكم وأسرار، ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة، لعدم علمه بالعواقب فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد، وأوجب له ذلك أمورًا:

منها: أنه لا أنفع له من امتثال الأمر، وإن شق عليه في الابتداء، لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات، ولذات وأفراح، وإن كرهته نفسه فهو خير لها وأنفع، وكذلك لا شيء أضر عليه من ارتكاب النهي، وإن هويته نفسه ومالت إليه، فإن عواقبه كلها آلام وأحزان وشرور ومصائب، وخاصة العقل تحمل الألم اليسير لما يعقبه من اللذة العظيمة والخير الكثير، واجتناب اللذة اليسيرة لما يعقبها من الألم العظيم والشر الطويل.

● فنظر الجاهل لا يجاوز المبادئ إلىٰ غاياتها، والعاقل الكيس دائمًا ينظر إلىٰ الغايات من وراء ستور مبادئها، فيرىٰ ما وراء تلك الستور من الغايات المحمودة والمذمومة فيرىٰ المناهي كطعام لذيذ قد خلط فيه سم قاتل، فكلما دعته لذته إلىٰ تناوله نهاه ما فيه من السم، ويرىٰ الأوامر كدواء كريه المذاق مفضٍ إلىٰ العافية والشفاء، وكلما نهاه كراهة مذاقه عن تناوله أمره نفعه بالتناول ولكن هٰذا يحتاج إلىٰ فضل علم تدرك به الغايات من مبادئها وقوة صبر يوطن به نفسه علىٰ تحمل مشقة الطريق لما يؤمل عند الغاية، فإذا فقد اليقين والصبر تعذر عليه ذلك، وإذا قوي يقينه وصبره هان عليه كل مشقة يتحملها في طلب الخير الدائم واللذة الدائمة.

ومن أسرار هٰذه الآية: أنها تقتضي من العبد التفويض إلىٰ من يعلم عواقب

الأمور، والرضا بما يختاره له ويقضيه له لما يرجو فيه من حسن العاقبة.

ومنها: أنه لا يقترح علىٰ ربه ولا يختار عليه، ولا يسأله ما ليس له به علم، فلعل مضرته وهلاكه فيه وهو لا يعلم فلا يختار علىٰ ربه شيئًا، بل يسأله حسن الاختيار له، وأن يرضيه بما يختاره، فلا أنفع له من ذلك.

ومنها: أنه إذا فوض إلىٰ ربه ورضي بما يختاره له أمده فيما يختاره له بالقوة عليه والعزيمة والصبر، وصرف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه، وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلىٰ بعضه، بما يختاره هو لنفسه.

ومنها: أنه يريحه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات التي يصعد منها في عقبة، وينزل في أخرىٰ، ومع هٰذا فلا خروج له عما قدر عليه فلو رضي باختيار الله أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به فيه، وإلا جرىٰ عليه القدر وهو مذموم غير ملطوف به فيه لأنه مع اختياره لنفسه، ومتىٰ صح تفويضه ورضاه، اكتنفه في المقدور العطف عليه، واللطف به فيصير بين عطفه ولطفه، فعطفه يقيه ما يحذره، ولطفه يهون عليه ما قدره.

● إذا نفذ القدر في العبد كان من أعظم أسباب نفوذه تحيّله في رده، فلا أنفع له من الاستسلام وإلقاء نفسه بين يدي القدر طريحًا كالميتة، فإن السبع لا يرضىٰ بأكل الجيف.

❋ ❋ ❋

«التعليق»

الإيمان بالقدر خيره وشره: وهو الاستسلام الكامل والرضا بالقضاء والقدر، والصبر علىٰ البلاء، وأن ما فات يُعوض الله تعالىٰ في الدنيا والآخرة.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أن مذهب أهل الحق إثبات القدر ومعناه: أن الله تبارك وتعالىٰ قدر الأشياء في القدم، وعلم سبحانه أنها ستقعُ

في أوقات معلومة وعلىٰ صفاتٍ مخصوصة علىٰ حسب ما قدَّرها سبحانه»
[انظر: «صحيح مسلم بشرح النووي» ١٥٤ وبتصرف يسير].

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [آل عمران]. وقال الله تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يونس]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾ [الإسراء]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾ [النمل]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [فاطر]. وقال الله تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾﴾ [الحشر]. وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [الجن]. وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق].

عن عبد الله بن عمرو العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا يرضى! لعبده المؤمن إذا ذهب بصفيه من أهل الأرض فصبر واحتسب وقال ما أمر به بثوب دون الجنة**» [رواه النسائي ١٨٧١، وقال الألباني: حسن ١٧٦٥].

عن صهيب الرومي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خيرٌ، وليس ذاك لأحدٍ إلا للمؤمن إن صابته سراءُ شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراءُ صبر فكان خيرًا له**» [رواه مسلم ٢٩٩٩].

عن أبي هريرة وأبي سعيد ﷺ أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «**ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن حتىٰ الهم يُهمُّهُ إلا كُفِّر به من سيئاته**» [رواه البخاري ٥٦٤١، ومسلم ٢٥٧٣].

(الوصب): الوجع والألم. (النصب): التعب.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل المؤمن كمثل خامة الزرع يُفيءُ ورقه من حيث أتتها الريحُ تكفؤها، فإذا سكنت اعتدلت، وكذلك المؤمن يكفأ بالبلاء، ومثل الكافر كمثل الأرزةِ صمَّاء معتدلة حتىٰ يقصمها الله إذا شاء**» [البخاري ٧٤٦٦، ومسلم ٢٨٠٩].

(الخامة): النبات الصغير الضعيف. الأرز: شجر معروف قوي يرتفع (من ٧٠ ـ ٨٠ قدمًا).

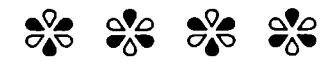
عن عباد بن الصامت ﷺ أنه قال لابنه: يا بنيَّ! إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتىٰ تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول ما خلق اللَّهُ القلمُ، فقال له: اكتب، قال: ربِّ وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتىٰ تقوم الساعة**» يا بنيَّ! إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من مات علىٰ غير هٰذا فليس مني**» [رواه أبو داود ٤٧٠٠، والترمذي ٢١٥٥، وأحمد ٣١٧/٥، وقال الألباني في «شرح عقيدة الطحاوي»: صحيح ٢٧١].

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يُلدغ المؤمن من جُحْرٍ واحدٍ مرتين**» [البخاري ٦١٣٣، ومسلم ٢٩٩٨].

عن أبي بكر الصديق ﷺ قال: كنت مع النبي ﷺ في الغار فرأيت المشركين، قلت: يا رسول الله! لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا، قال: «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما**» [رواه البخاري ٤٦٦٣].

عن ابن مسعود ﷺ قال: «اليقين الإيمانُ كُلُّهُ، والصبرُ نصف الإيمان» [قال الحافظ في «الفتح» ٤٨/١: ذكر الطبراني بسند صحيح، وأبو نعيم في «الحلية»، والبيهقي في «الزهد» مرفوعًا ولا يثبت رفعه].

عن أُبي بن كعب ﷺ أنه قال لابن الديلمي لما أتاهُ يسأله أنه وقع في نفسي شيءٌ من القدر، فحدثني بشيء، لعل الله أن يذهبه من قلبي، فقال: لو أن الله عذَّب أهل سماواته وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أُحدٍ ذهبًا في سبيل الله ما قبله الله منك حتىٰ تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو متَّ علىٰ غير هٰذا لدخلت النار» [رواه أبو داود ٤٦٩٩، وابن ماجه ٧٧].



الدعاء

● قوله تعالىٰ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء].

جمع في هٰذا الدعاء بين حقيقة التوحيد، وإظهار الفقر والفاقة إلىٰ ربه ووجود طعم المحبة في التملق له، والإقرار له بصفة الرحمة وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته سبحانه، وشدة حاجته هو وفقره.

ومتىٰ وجد المبتلىٰ هٰذا كشفت عنه بلواه، وقد جرب أنه من قالها سبع مرات ولا سيما مع هٰذه المعرفة كشف الله ضره.

● قوله تعالىٰ عن يوسف نبيه أنه قال: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف].

جمعت هٰذه الدعوة: الإقرار بالتوحيد، والاستسلام للرب وإظهار الافتقار إليه، والبراءة من موالاة غيره سبحانه وكون الوفاة علىٰ الإسلام أجلّ غايات العبد، وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد، والاعتراف بالمعاد، وطلب مرافقة السعداء.

❋ ❋ ❋

«التعليق»

الدعاء: يجلب المصالح ويدفع المفاسد، ويفرج الكرب، سلاح يتقي به العدو وسوء القضاء، وهو الشعور بالضعف والحاجة، فلا يزال العبد يدعو حتىٰ تفرج عنه وينال حاجته، ويشعر بأنه في معية الرب ورحمته لحسن الظن به جلَّ وعلا.

قال الطيبي عن الدعاء: «هو إظهار غاية التذلل والافتقار إلىٰ الله والاستكانة له» [«فتح الباري» ١١/٩٥].

وقال المناوي: «هو لِسانُ الافتقار بشرح الاضطرار».

وقيل: هو شفيع الحاجة ونُجْحُها باللَّجاجة، وقيل: هو طلب كشف الغُمَّةِ بتطلع موضع القسمة» [«التوقيف على مهمات التعريف» ١٦٦].

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يونس]. وقال الله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء]. وقال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾﴾ [الفرقان]. وقال الله تعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل]. وقال الله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ [فصلت]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الصافات]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَـٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء].

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافلٍ لاهٍ**» [الترمذي ٣٤٧٩، السلسلة الصحيحة ٥٩٤].

عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة، ولا يقولنَّ: اللَّهمَّ! إن شئت فأعطني، فإنه لا مستكره له**» [البخاري ٦٣٣٨].

(ليعزم المسألة): أي يجتهد ويلح في الدعاء.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أقرب ما يكون العبدُ من ربه وهو ساجدٌ، فأكثروا الدعاء**» [مسلم/٤٨٢].

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن في الجمعة لساعةً لا يوافقها مسلمٌ يسأل الله فيها خيرًا إلا أعطاه إياهُ، قال: وهي ساعةٌ خفيفةٌ**» [البخاري ٩٣٥، ومسلم ٨٥٢].

وهو عند الطبراني وفيه: «**في يوم الجمعة ساعةٌ لا يوافقها عبدٌ وهو يصلي، أو ينتظر الصلاة يدعو الله ﷻ فيها إلا استجاب له**» [الطبراني/١٤٩].

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثةُ لا يردُّ دعاؤهم: الذاكر الله كثيرًا، ودعوة المظلوم، والإمام المقسط**» [«شعب الإيمان» للبيهقي ٣٩٩/٢، وذكره الألباني في «صحيح الجامع» ٣٠٦٤، وقال: حسن وهو في «الصحيحة» له ١٢١١ و٣٣٧٤ وقال: إسناده حسن].

عن ثوبان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البرُّ، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**» [الترمذي ٢١٣٩، وابن ماجه ٤٠٢٢، وأحمد ٢٧٧/٥، والطبراني في «الكبير» ١٤٤٢، والحاكم ٢٩٣/١، وهو في «الصحيحة» ١٥٤].

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يتنزل ربنا تبارك وتعالىٰ كل ليلة إلىٰ السماء الدنيا حين يبقىٰ ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، ومن يسألني فأعطيه، ومن يستغفرني فأغفر له**» [البخاري ٧٤٩٤، ومسلم ٧٥٨].

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «إن الدعاء موقوفٌ بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتىٰ تُصلِّي علىٰ نبيك ﷺ» [الترمذي ٤٨٦].

قال مجاهد: «إن الصلاة جعلت في خير الساعات، فعليكم بالدعاء خلف الصلوات» [إحياء علوم الدين ١/٣٠٤].

قال سفيان الثوري رحمه الله: «بلغني أن بني إسرائيل قُحطوا سبع سنين حتىٰ أكلوا الميتة من المزابل وأكلوا الأطفال، وكانوا يخرجون إلىٰ الجبال يبكون ويتضرعون فأوحىٰ الله عز وجل إلىٰ أنبيائهم عليهم السلام: لو مشيتم إليَّ بأقدامكم حتىٰ تخفىٰ ركبكم، وتبلغ أيديكم عنان السماء، وتكلَّ ألسنتكم عن الدعاء، فإني لا أجيب لكم داعيًا، ولا أرحم لكم باكيًا، حتىٰ تردُّوا المظالم إلىٰ أهلها، ففعلوا فمطروا من يومهم» [المرجع السابق ١/٣٠٧].

قال يحيىٰ الغساني رحمه الله: «أصاب الناس قحطٌ علىٰ عهد داود عليه السلام فاختاروا ثلاثة من علمائهم، فخرجوا حتىٰ يستسقوا بهم، فقال أحدهم: «اللَّهمَّ! إنك أنزلت في توراتك أن تعفو عمن ظلمنا، اللَّهمَّ! إنا ظلمنا أنفسنا فاعف عنا، وقال الثاني: اللَّهمَّ! إنك أنزلت في توراتك أن نعتق أرقاءنا اللَّهمَّ! إنا أرقاؤك فاعتقنا، وقال الثالث: اللَّهمَّ! إنك أنزلت في توراتك أن نَرُدَّ المساكين إذا وقفوا بأبوابنا، اللَّهمَّ! إنا مساكينك وقفنا ببابك فلا تَرُدَّ دعاءنا؛ فسقوا» [«الأذكار النووية» /٦١٢].

قال سفيان بن عينة رحمه الله تعالىٰ: «لا يمنعنَّ أحدًا الدعاء ما يعلم في نفسه يعني من التقصير، فإن الله قد أجاب دعاء شر خلقه وهو إبليس حين ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٣٦﴾ [الحجر، ص٧٩]» [الفتح ١١/١٤٤ ـ ١٤٥].

قال القاضي حسين رحمه الله: «يستحب لمن وقع في شدةٍ أن يدعو بصالح عمله» [«الأذكار النووية»/٦١٢].

قال الأوزاعي رحمه الله: «خرج الناس يستسقون، فقام فيهم بلال بن سعد، فحمد الله تعالىٰ وأثنىٰ عليه ثم قال: «يا معشر من حضر ألستم مُقرين بالإساءة؟ قالوا: بلىٰ، قال: اللَّهمَّ! إنا سمعناك تقول: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ وقد أقررنا بالإساءة، فهل تكون مغفرتك إلا لمثلنا؟ اللَّهمَّ! اغفر لنا

وارحمنا واسقنا» فرفع يديه، ورفعوا أيديهم؛ فسقوا» [«الأذكار النووية»/٦١٢].

قال بعض أهل العلم: «ادْعُ بلسان الذلة والافتقار لا بلسان الفصاحة والإنطلاق» [«إحياء علوم الدين»/١/٣٠٦].

قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أتهزأُ بالدعاء وتزدريه ... وما تدري بما صنع الدعاء

سهام الليل لا تخطئ ولكن ... لها أمد وللأمد انقضاء

[ديوان الشافعي/٤٨].

❀ ❀ ❀ ❀

من صفات أهل النار

● ثم ذكر صفات هٰذا الملقىٰ فذكر له ست صفات:

أحدها: أنه كفَّار لنعم الله وحقوقه، كفَّار بدينه وتوحيده وأسمائه وصفاته، كفَّار برسله وملائكته، كفَّار بكتبه ولقائه.

الثانية: أنه معاند للحق بدفعه جحدًا وعنادًا.

الثالثة: أنه مناع للخير، وهٰذا يعم منعه للخير الذي هو: إحسان إلىٰ نفسه من الطاعات، والقرب إلىٰ الله. والخير الذي هو: إحسان إلىٰ الناس، فليس فيه خير لنفسه ولا لبني جنسه كما هو حال أكثر الخلق.

الرابعة: أنه مع منعه للخير، معتدٍ علىٰ الناس، ظلوم غشوم معتد عليهم بيده ولسانه.

الخامسة: أنه مريب ـ أي صاحب ريب وشك ـ ومع هٰذا فهو آت لكل ريبة، يقال: فلان مريب إذا كان صاحب ريبة.

السادسة: أنه مع ذلك: مشرك بالله، قد اتخذ مع الله إلـٰهًا آخر، يعبده ويحبه، ويغضب له، ويرضىٰ له، ويحلف باسمه، وينذر له، ويوالي فيه، ويعادي فيه، فيختصم هو وقرينه من الشياطين، ويحيل الأمر عليه، وأنه هو الذي أطغاه وأضله، فيقول قرينه: لم يكن لي قوة أن أضله وأطغيه، ولكن كان في ضلال بعيد، اختاره لنفسه وآثره علىٰ الحق كما قال إبليس لأهل النار: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِيۖ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

❋ ❋ ❋

«التعليق»

النار وأهلها: أعد الله تعالىٰ وهيّأ للكافرين نار جهنم الذين ضلوا عن الهدىٰ تأخذهم الملائكة، ويلقون فيها من مكان ضيق مغلولين أيديهم إلىٰ أعناقهم بالسلاسل يطلبون الخلاص منها بالهلاك.

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾ [الإنسان]. وقال الله تعالىٰ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ [الفرقان]. وقال الله تعالىٰ: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحاقة]. وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [النساء]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الزمر].

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يؤتىٰ بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها**» [رواه مسلم ٢٨٤٢].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**تخرج عنق من النار يوم القيامة لها عينان تبصران وأذنان تسمعان، ولسان ينطق يقول: إني وكلتُ بثلاثةٍ: بكل جبارٍ عنيدٍ، وبكل من دعا مع الله إلٰهًا آخر، وبالمصورين**» [رواه الترمذي ٢٥٧٤، وصححه الألباني ٢٠٨٣، وأخرجه أحمد ٨٢٢٥].

عن أبي سعيد الخدري ﷺ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أدنىٰ أهل النار عذابًا ينتعل بنعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه**» [مسلم ٢١١، وأحمد ١١٣٠].

عن أبي رزين رحمه الله في قوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة]. قال: «الدنيا قليل فليضحكوا فيه ما شاؤوا، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلىٰ الله استأنفوا بكاءً لا ينقطع عنهم أبدًا» [«موسوعة ابن أبي الدنيا» ٦/٤٤٦].

قال وهب بن منبه رحمه الله: «كُسيَ أهل النار، والعُرْي كان خيرًا لهم، وأعطوا الحياة، والموت كان خيرًا لهم» [«موسوعة ابن أبي الدنيا» ٦/٤٣٩].

عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ﴾ [الزخرف: ٧٧] قال: يمكث عنهم ألف سنة ثم يجيبهم: ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [«موسوعة ابن أبي الدنيا» ٦/٤١٧].

عن موسىٰ ابن أبي عائشة رحمه الله: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ٢٤] قال: «تشدّ أيديهم وأرجلهم، فلما جاءهم نوع من العذاب اتقوا بوجوههم» [المرجع السابق ٦/٤٥٨].

❀ ❀ ❀ ❀

من صفات أهل الجنة

• ثم أخبر عن تقريب الجنة من المتقين، وأن أهلها هم الذين اتصفوا بهٰذه الصفات الأربع:

إحداها: أن يكون أوّابًا، أي: رجاعًا إلىٰ الله من معصيته إلىٰ طاعته، ومن الغفلة عنه إلىٰ ذكره.

قال عبيد بن عمير: الأوّاب الذي يتذكر ذنوبه ثم يستغفر منها.

وقال مجاهد: هو الذي إذا ذكر ذنبه في الخلاء استغفر منه.

وقال سعيد بن المسيب: هو الذي يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب.

الثانية: أن يكون حفيظًا.

قال ابن عباس: لما ائتمنه الله عليه وافترضه.

وقال قتادة: حافظ لما استودعه الله من حقه ونعمته.

ولما كانت النفس لها قوتان: قوة الطلب، وقوة الإمساك كان الأوّاب مستعملًا لقوة الطلب في رجوعه إلىٰ الله ومرضاته وطاعته، والحفيظ مستعملًا لقوة الحفظ في الإمساك عن معاصيه ونواهيه. فالحفيظ: الممسك نفسه عما حرم عليه. والأوّاب: المقبل علىٰ الله بطاعته.

• **الثالثة**: قوله: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [ق: ٣٣]. يتضمن الإقرار بوجوده، وربوبيته، وقدرته وعلمه، واطلاعه علىٰ تفاصيل أحوال العبد، ويتضمن الإقرار بكتبه ورسله، وأمره ونهيه، ويتضمن الإقرار بوعده ووعيده ولقائه، فلا تصح خشية الرحمن بالغيب إلا بعد هٰذا كله.

• **الرابعة**: قوله: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق].

قال ابن عباس: راجع عن معاصي الله، مقبل علىٰ طاعة الله.

وحقيقة الإنابة: عكوف القلب على طاعة الله ومحبته والإقبال عليه.

ثم ذكر سبحانه جزاء من قامت به هذه الأوصاف بقوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق].

*****

«التعليق»

الجنة وأهلها: هي دار أعدها الله تعالى لأوليائه المتقين، يدخلونها سالمين من كل العذاب والآلام والهموم، جعل فيها من أنواع النعيم والملذات، آمنين من كل منغص ومكدِّر، لا يموتون فيها ولا يفنون، ماكثين فيها أبدًا.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر]. وقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء]. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين]. وقال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد]. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾﴾ [الدخان]. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ [النبأ]. وقال الله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزمر].

عن أنس رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**لغدوة في سبيل الله، أو روحة خيرٌ**

من الدنيا وما فيها، ولقاب قوس أحدكم أو موضع يده في الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو أن امرأةً من نساء أهل الجنة اطلعتْ إلىٰ الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأت ما بينهما ريحًا، ولنصيفها علىٰ رأسها خيرٌ من الدنيا وما فيها» [البخاري ٢٧٩٢، ومسلم ١٨٨٠، والترمذي ١٦٥١، وابن ماجه ٢٧٥٧].

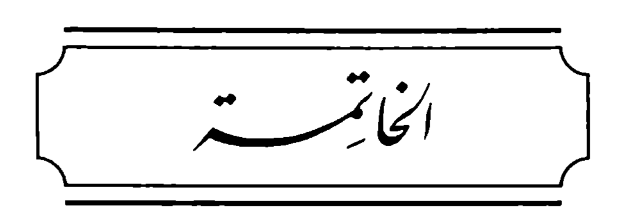
عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «**جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلىٰ ربهم إلا رداء الكبر علىٰ وجهه في جنة عدن**» [البخاري ٧٤٤٤، ومسلم ١٨٠، وأحمد ١٩٢٣٢].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إذا سكن أهل الجنة: نوَّر سقفُ مساكنهم نور عرشه» [«موسوعة ابن أبي الدنيا» ٦/٣٢٠].

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق] قال: «يتجلىٰ لهم كل جمعة» [«موسوعة ابن أبي الدنيا» ٦/٣٤٠].

وعن مجاهد رحمه الله في قوله تعالىٰ: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [الإنسان] قال: «إذا قام ارتفعت، وإذا قعد تدلت حتىٰ يتناولها، وإذا اضطجع تدلت، فذلك تذليلها» [«موسوعة ابن أبي الدنيا» ٦/٣٤٥].

❀ ❀ ❀ ❀



الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والشكر له وحده، وأسأل الله تعالىٰ أن يغفر لنا وللإمام الجليل مؤلف الكتاب ويمحو زلاتنا ويجبر ضعفنا، وأن يتقبل منا، وأن لا يؤاخذنا بما وقع عن الفهم أو زل بنا القلم.

وإن القارئ لمؤلفات الشيخ رحمه الله تعالىٰ المتنوعة في فنون عديدة ليعيش في دوحة علم، وتلبية حاجة القلب لما يزكيها ويسمو بها، فإن الحاجة لها أشد من حاجة الزرع للمطر وخاصة في هٰذا الزمان.

نسأل الله تعالىٰ أن يُخلص نياتنا، وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

وآخر دعوانا إن الحمد لله رب العالمين.

وصلَّىٰ الله وبارك علىٰ نبينا محمد
وعلىٰ آله وصحبه
ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.
آمين

❀ ❀ ❀ ❀

الفهرس

الموضوع	الصفحة

❀ ❀ ❀ ❀